زكريا تامر

النمور في اليوم العاشر

دار الآداب

B.HAMDAN

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
تموز (يوليو) ١٩٨١

الاعداء

١ ـ البداية

نفخ الشرطي في صفارته ، فبزغت توا شمس الصباح، واضاءت شوارع المدينة بنور اصفر كخشب مشنقة عجوز .

وعندئذ أفاق الناس من نومهم آسفين عابسي الوجوه .

٢ ـ السماء المفقودة

حط عصفوران على غصن شجرة من الاشجار المنتصبة على جانبي احد الشوارع ، ولم يفردا مرحبين بشمس الصباح انما تبادلا النظرات الوجلة الحائرة ، وقال احدهما للاخر : « أين نطير ؟ » .

« ـ سماؤنا احتلتها الطائرات » .

« ـ لم يبق لنا سوى سماء الاقفاص » .

« ـ سنفقد اجنحتنا » .

« ـ سننسى الغناء » .

وجدق العصفوران الى طـــائرة سوداء تعبر السماء بسرعة خاطفة ثم تبادلا النظرات الوجلة ، وبدت لهما المدينة فما شرها ذا انياب ، فابتلعا حبوبا ميتة ، ثم سقطا ميتيـن على رصيف صلب من اسمنت .

٣ ــ الاسرى

يمشي رجلان عجوزان على رصيف شارع بخطا وئيدة، ويتحدثان بكآبــة :

« ــ هذا الزمان آخر زمــان » .
« ــ الحال من سيء الى اسوا » .
« ــ حان وقت كتابة العريضة » .
« ــ اي عريضة ؟ » .
« ــ العريضة التي ينبغي رفعها الى الله عزوجل » .
« ــ وماذا سنكتب في تلك العريضة ؟ » .
« ــ سنكتب ما يلي : نحن الموقعين ادناه نلتمس من سيد الكون ان يرسل الينا جيشا من ملائكتــه مسلحا باحدث الاسلحة على ان يقيم على حدود البـــلاد ويقاتل الاعداء ولا يعاملنا كاسرى » .
« ــ وماذا نفعل في حال عدم تنفيذ طلبنا ؟ » .
« ــ نرفع عريضة ثانية نطلب فيها الموافقة على اعفائنــا من الصلوات الخمس » .
« ــ واذا لم يوافق ؟ » .
« ــ بل سيوافق ايضا على اعفائنا مــن الصوم . انــه رؤوف رحيم » .

٤ ــ الثار

ثمة عدد من الاولاد مجتمعون في باحــة المدرســة ، يلعبون بحماسة لعبة جديدة .

« ــ انا طرزان » .
« ــ انا عنتر » .
« ــ انا مليونير » .
« ــ انا مخترع القنبلة الذرية » .
« ــ انا شرطــي » .
« ــ انا مخترع الطائرات » .

فانقضّ الاولاد عـــلى مخترع الطـــائرات ، وراحوا يصفعونه ويلكمونـــه ويركلونــه بينمــا كــان يصرخ معــولا مستغيثا .

٥ ــ رجال

« ... الحمد لله الذي خلقنا رجالا نركض ساعة الخطــر الى امام كالريح ، فننجو ولا نهلك .

والحمد لله الذي لم يخلقنا نساء تقعد فــي البيــوت فتحرقنا قنابل الاعــداء وكأننا الجوارب العتيقة .

الحمد لله الذي لا يحمد سواه ..» .

٦ ــ الخطــر

سئل فلكي عما سيأتي به المستقبــل ، فقال دونمــا تردد : « سيهلك الكبار . سيهلك الصغار . ستهلك القطط والطيور والازهار . ستحرق البيوت والكتب والرايــات . ستحرق مقاعد المدارس والصور التذكارية . سيمحو النابالم

الضحكات واللغة العربية والسنابل . ستهدم المستشفيات . ستهدم المصانع . ستهدم الحدائق . ستسير النساء في الشوارع دون ملاءات » .

ولما نشرت تلك النبوءة مفصلة في كتاب ، اتفق المخلصون للوطن على استنكار ما سيحل بالمرأة ، وتنادوا الى التضحية بالنفس والنفيس لدرء ذلك الخطر البشع .

٧ ـ الجثة

كان الرجال الموشكون على اداء الصلاة ، متحلقين بلهفة حول شيخ المسجد ، وقد سأل احد الرجال الشيخ بصوت متهدج : « اتوجد يا شيخنا طائرات في الجنة ؟»

فقال الشيخ : « لا وجود للطائرات في الجنة ؟ »

فتنهد الرجال بارتياح ، وقالوا بفرح :«الحمد لله ».

٨ ـ خطبة

« .. والله ما كان سكوتنا على الاعداء عن ضعف انما كان اباء وشمما وترفعا وثقة بالنفس .

قالوا : نريد بترولكم . قلنا : خذوا بترولنا ، فنحن احفاد حاتم الطائي . قالوا : اعلنوا حربا شعواء على الافكار المستوردة . فقلنا : نحن اهل الكر والفر ، ونصبنا المشانق وشيدنا السجون .

ارادوا الاستيلاء على مدينة ، فاعطيناهم مدنا ومدنا كي نبرهن على اننا لا نبالي بهم ، فاذا كانوا يملكون الطائرات والقنابل ، فنحن نملك الخلق القويم والمبادىء السماوية ، وشتان بين ما يملكون وما نملك ، فنحن

الاقوياء لاننا مسلحون بالروح والحق لا بالمادة الزائلة والباطل الزهوق ... » .

٩ ـ وسام المنقذ

ظفرت اللغة العربية بارفع وسام في الوطن لمساهمتها في تحويل هزيمة حربية الى نصر ، فهي اسمت الحرب انسحابا ، واسمت الانسحاب صمودا ، واسمت الصمود بطولة ، واسمت البطولة نصرا .

ولقد انتصرنا على الاعداء ، وسننتصر ايضا على طابورهم الخامس الذي يتجاهل وحدة الطاقات القتالية للغة العربية .

١٠ ـ لماذا ؟

سأل التلميذ معلمه : « ما الفارق بين الحيوان والانسان ؟ » .

فقال المعلم للتلميذ : « الحيوان لا يتكلم والانسان يتكلم » .

لم يكذب المعلم ، ونحن العاملين في الاذاعة والتلفزيون والصحف خير من تكلم .

فالى خالق السموات والارض الذي منحنا الالسنة ، نقدم الشكر والامتنان ، ففوائد الكلام لا تحصى ، ويوم حاربنا الاعداء قام كلامنا بدور مشرف ، فجابه الاعداء بشجاعة ، واسقط طائراتهم ودمر دباباتهم واباد جنودهم .

فلماذا حدث ما حدث وحلت بنا الهزيمة مع ان كلامنا جاهد جهاد الابطال ؟

١١ ــ محو الفقراء

جاع المواطن سليمان القاسم ، فأكل جرائد زاخرة بمقالات تمتدح نظام الحكم ، وتعدد محاسنه المتجلية في محو الفقر .

ولما شبع ، شكر الله رازق العباد ، وآمن ايمانا عميقا بما قالته الجرائد .

١٢ ــ برنامج اذاعي

مذيع : « ما اسمك يا أخ » .

شاب : « عبدالمنعم الحلبي » .

مذيع : « متزوج ؟ » .

شاب : « عازب » .

مذيع : « ماذا تشتغل ؟ » .

شاب : « انا بلا عمل » .

مذيع : « ولماذا لا تعمل ؟ أانت غني ام تكره العمل ؟ » .

شاب : « لست غنيا ولا اكره العمل . اني ابحث عن عمل منذ سنوات » .

مذيع : « ما هي الامنية التي تتوق الى تحقيقها ؟ »

شاب : « ان اموت الآن » .

مذيع : « ايها الاعزاء المستمعون . لا ريب في ان الاخ عبدالمنعم الحلبي وطني غيور ، فهو كما تلاحظون حين يتمنى الموت يرغب في معاقبة نفسه لانه لا يساهم في بناء مجتمعنا المتطور السائر الى الامام » .

١٣ ــ الايثار

سأل طفل صغير امه : « ما الفائدة من العينين ؟ » .

فتجهم وجه الام ، وقالت وهي تنظر الى طفلها بريبة وحذر : « العينان خلقتا لتنظرا باحترام وحب الى صور زعماء البلاد » .

قال الطفل : « والاذنان ؟ »

قالت الام وقد تزايد خوفها : «الاذنان تسمعان الاوامر الرسمية والخطب السياسية » .

قال الطفل : « واللسان ؟ » .

قالت الام : « اللسان لا فائدة له سوى المساعدة على ابتلاع الطعام بعد أن تمضغه الاضراس والاسنان » .

فابتسم الطفل ابتسامة غامضة بينما كانت الام ترتعد خاضعة ترعب قاس .

١٤ ــ البطل

مذيعة تلفزيونية : « هل تسمح يا أستاذ خالد بن الوليد بأن تشرح للاخوة المشاهدين كيف صرت بطلا شهيرا ؟ » .

خالد بن الوليد : « لقد صرت بطلا بفضل ملح اندروس الفوار ، ففي كل صباح كنت اشرب كوب ماء بعد ان اذيب فيه ملعقتين من ملح اندروس .. فملح اندروس كما يعلم القاصي والداني ينشط الكبد وينظف الامعاء ويقوي الجسم وينعش العقل » .

١٥ ــ الحب

« فتش كما تشاء يا سيدي الشرطي ، فامراتي ليست مطبعة تطبع المنشورات السياسية الهدامة ، وضحكتها ليست مؤامرة استعمارية ، ولا يمكن ان تفسر على انها نقد

مباشر لنظام الحكم خاصة واني قبل ان احبها ، سألتها عن رايها بنظام الحكم السائد حاليا في البلاد ، فأجابت فورا بانها تحبه حبا جما ، وعندئذ فقط سمحت لقلبي بأن يعشق تلك المواطنة الواعية .

ولما قبلتها لاول مرة ارتعشنا معا مبتهجين وكأننا كنا نصفق ونهتف فيمسيرة مؤيدة لكفاح الشعوب .

فهل تريد يا سيدي الشرطي اخلاصا للوطن اكثر من اخلاصنا ؟! » .

١٦ ـ الجريمة

انا مواطن لا اختلف عن غيري من المواطنين المعوزين، ثيابي كثيابهم ، ومعدتي كمعدهم ، واخاف كما يخافون .

وعندما منحتني الدولة شرف العمل في مصنع تملكه، لم ادرك قيمة ما منحت ، وطالبت بعد أشهر قليلة بزيادة اجري متجاهلا ما تتطلبه المعركة ضد الاعداء من اموال ، ومخالفا الاوامر الرسمية بوجوب التقشف ، ولم انتبه الى مدى الضرر الذي سينزل بالوطن اذا ما لبي طلبي ، فلو كنت قد حصلت على زيادة اجري ، فلسوف ينقص مال الدولة، واذا نقص مال الدولة ، فسينقص ما يدفع ثمنا للويسكي وثياب النساء والسيارات والابنية ، واذا قل الويسكي وزعلت النساء وغدت السيارات والابنية غير فخمة ، فمن المؤكد تاريخيا وموضوعيا ان فرح المسؤولين عن البلاد سيتضاءل ، واذا تضاءل فرح المسؤولين فستصبح معنوياتهم خائرة ، وتصير بياناتهم وتصريحاتهم وخطبهم قاترة مملة لا ترعب الاعداء .. ولذا فحين طالبت بزيادة اجري، خدمت

الاعداء وشاركت في انجاح حربهم النفسية .

اذن فلأعاقب شر عقاب .

ملاحظة : « هذا الوعي المباغت الذي امتلكته لا علاقة له البتة بأقتيادي الى مخفر الشرطة ، اذ لم اسال هناك الا عن اقتراحاتي الرامية الى تطوير الانتاج » .

١٧ ـ اولو الامر

اتكأ الشرطي بمرفقيه على سور النهر ، وصاح بصوت خشن صارم : « ايها النهر » .

« ـ من يناديني ؟ » .

« ـ انا الذي اناديك » .

« ـ من انت ؟ » .

« ـ انا شرطي » .

فارتجفت مياه النهر ، واضاف الشرطي قائلا : « اذا اردت الا تطرد وتحيا بقية عمرك في منفى ، فعليك ان تتعهد خطيا بعدم التدخل في الشؤون السياسية » .

« ـ ولكن الوطن وطني » .

قال الشرطي بلهجة جافة : « هل تريد ان تسجن ؟ » .

فبادر النهر الى تنفيذ رغبة الشرطي ، معلنا الولاء والطاعة لاولي الامر .

١٨ ـ في سبيل وطن يسر السياح

الى من يهمه الامر :

نحن المخلوقات البشرية الرثة التي تقطن في الازقة الضيقة المظلمة ، نطالب بما يلي :

١ ــ ان يسمح لنا بالسير عراة توفيرا لثمن الثياب ،ولكي يتاح لاجسادنا الحصول على النور والهواء .

٢ ــ ان تقوم المستشفيات الحكومية مجانا باستئصال معدنا التي تسبب لحياتنا اضطرابا لا مبرر وطنيا له .

٣ ــ ان تقطع رؤوسنا بعد ان ثبت لنا ان ما يجعل المواطن خائنا هو العين التي تبصر والاذن التي تسمع واللسان الذي يتكلم والعقل الذي يفكر والعقل الذي لا يفكر .

١٩ ــ اصفاد الموتى

يروي ان رجلا عشق امراة ، ولكنها ابت الزواج منه، فقال لها متسائلا بدهشة :« كيف ترفضين الزواج مني مع انك تقولين لي دائما بانك تحبينني ؟» .

قالت المراة : « انا احبك ولكنك من اسرة لا تدفن الموتى من اجدادها ، فكيف تريد مني ان احيا معك في بيت غرفه مليئة بالجثث ؟ » .

ففكر الرجل هنيهات ثم قال : « انت محقة فالموتى لهم المقابر لا منازل الاحياء » .

وبادر الى حفر حفرة عميقة كي يدفن فيها جثث اجداده ، غير ان اشباح الاجداد والاعداء اوثقته بالاصفاد ودفنته في الحفرة التي سبق ان حفرها .

لم تبك المراة ، انما شحذت سيف رجلها ، وانتظرت عودته دونما يأس كي يحارب الاجداد والاعداء .

٢٠ ــ الشموس والاقمار

الجبان الحي خير من الشجاع الميت ، فقبل اليد

القوية وادع في السر ان تكسر ، واذا اردت مطلبا من كلب فقل له : مولاي الكلب .

كن أول من يطيع وآخر من يعصي ، فلا راي لمن لا يطاع ، واذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، والقناعة كنز لا يفنى ،والحسود لا يسود ، فاستقم كما امرت واطع اولي الامر ، وكل من سار على الدرب وصل .

٢١ ــ الصغار يضحكون

شاهد الملك يوما عددا من الاولاد يلعبون في احد الحقول ويضحكون بمرح ، فسألهم :« لماذا تضحكون ؟» .

قال احد الاولاد : « انا اضحك لان السماء زرقاء ».

وقال ولد ثان : « وانا اضحك لان الاشجار خضراء ».

وقال ولد ثالث : « وانا اضحك لان العصافير تطير ».

فنظر الملك الى السماء والعصافير والاشجار . فألفاها لا تضحك ، فاقتنع بان ضحكات الاولاد لا هدف لها سوى الهزء بهيبته الملكية ، فعاد الى قصره ، واصدر امرا بمنع اهل مملكته من الضحك ، فاطاع الناس الكبار السن، وكفوا عن الضحك ، غير ان الاولاد الصغار لم يبالوا بأمر الملك وظلوا يضحكون لان الاشجار خضراء والسماء زرقاء والعصافير تطير .

٢٢ ــ الرشوة

عقد رجال الحارة اجتماعا تحدثوا فيه عن امور الدين والدنيا ، فسارع رجل ذو لحية بيضاء يقول لهم بلهجة مؤنبة :« لم يهزمنا الاعداء في الحرب الا لاننا ابتعدنا عن

دیننا الحنیف ، واعلموا ان تلك الهزیمة عقاب وانذار ،عقاب لما ارتکبتم من ذنوب ، وانذار بمستقبل حافل بالویـــلات والکوارث » .

فصاح واحد من اهل الحارة: « ماذا نفعل ؟ ارشدنا ».

قال الرجل الملتحي : « عودوا الی دینکم نادمین تائبین طالبین الغفران وحسن الختام » .

قال رجل : « ولکنا نصلي ونصوم ولا نؤذي احـــدا ونذکر الله صباح مساء » .

قال الملتحي :« ما تفعلونه لا یکفي ،یجب ان تبنـــوا مسجدا تعلو فیه کلمة الله » .

« ــ ولکن بناء المسجد یکلف أموالا کثیرة ، ونحن فقراء » .

قال الملتحي بنزق : « الویل لکم ! أتعتذرون عن بنـاء المسجد متذرعین بحجج واهیة ، بینما تنفقون ما تکسبون من أموال في سبیل حیاة فانیة ؟ بئس المصیر لمن فضل الحیـاة الدنیا علی رضی أله » .

فنکس الرجال رؤوسهم خجلین .

وجاع اهل الحارة زمنا طویلا ، ولکنهم بنوا مسجدا له مئذنة تشبه رمحا غاضبا یوشك ان یندفـع عبر الفضـاء لیثقب طائرات الاعداء .

٢٣ ــ التحقیـق

قال المحقق لطفل في المهد : «ایاك والکذب . قل کل ما تعرف عن رفاقك » .

لم یجب الطفل ، فاستاء المحقق ، وقال للطفل بلهجة حانقة : « اتجرؤ علی رفض الکلام ؟» .

بکی الطفل ، فاستاء المحقق ، وامر باستدعاء رجاله ، فأقبلوا حالا حاملیـن السیاط والليل المیت النجوم .

٢٤ ــ الوصیـة

کان الرجل الهرم الذي یحتضر ، یتحلق حوله العدید من ابنائه واحفاده الحزانی ، وقد تأمل بعینین مجهدتیـن وجوههم الصفراء وثیابهم المهترئة، وقال لهم بصوت خفیض مرتعش آسف : « سأموت دون ان اترك لکم ما ینفعکم ».

وهم بمتابعـة کلامه ولکن اعیاء حادا مباغتا داهمـــه وارغمه علی السکوت ، فأغمض عینیه وهو یرتجف متلهفا الی ان یقول لابنائه واحفاده :« الحیاة یا اولادي واحفادي غریبة، فأفعلوا کل ما هو سيء مشین ، عیشوا فسادا فـي الارض . لا تقولوا الصدق ولو کانت انشوطة المشنقة تهم بحصد رؤوسکم . اکذبوا ، تملقوا الاثریاء وذوي المناصب ، تملقوا التافه والضحل والاجوف والمهرج فالمستقبل الوضاء لهم لا لغیرهم . صفقوا للوافد الجدید الصاعد واشتمـــوا الراحل الآفل.اسکروا . لا تصلوا. لا تصوموا . لا تحسنوا الی احد . کونوا الیمین والیسار وکونوا الشرق والغرب . احتقروا الکتب فابتسامة مسؤول افضل من الف کتاب . حاربوا الضعیف المعوز ، وناموا اذلاء علی اعتاب القـــوي القادر . امدحوا من لا یستحق المدیح . صفقوا اعجابـــا بنباح الکلاب ، واقرعوا الطبول کـي لا یسمـع تغریـــد البلابـل ».

وخضع الهرم المحتضر لحقد عاصف ، فحاول ان یصرخ

معلنا ما يرغب في قوله ، ولكن الموت اقبل في تلك اللحظة، فصمت المحتضر مفعمـا بالمرارة والاسف .

٢٥ ـ النهايـة

قا ل المعلم لتلاميذه الصغار : « السنة كما اخبرتكـم سابقا تتألف من اربعة فصول ، فما هي ؟ »

صاح التلاميذ : « الخريف » .

قال المعلم : « في الخريف تصفر اوراق الاشجـــار وتحرث الارض وتفد الغيوم » .

جاء الخريف ، واصفرت اوراق الاشجار ، ثم تساقطت لتغطي جثث من قتلوا في الحرب ولم يدفنوا في قبور .

صاح التلاميذ : « الشتاء » .

قال المعلم : « في الشتاء ، تهطل الامطار وتـــروي التـــراب » .

جاء الشتاء ، فاذا حطام طائراتنا ورجالها الموتـــى الابرياء بذور في التراب هطلت فوقها الامطار الغزيرة .

صاح التلاميذ : « الربيع » .

قال المعلم : « في الربيع يعم اللون الاخضر » .

جاء الربيـــــع ، واكتست الارض بالعشب الاخضر والازهار ، ولكن الامهات والمدن ظلت مرتدية ثياب الحداد.

صاح التلاميذ : « الصيف » .

قال المعلم : « الصيف موسم الحصاد » .

جاء الصيف ، ولكن الارض لن تنبت سنابل قمح ،انما ستنبت طائرات جديدة ورجالا تواقين الى موت ثان .

٢٦ ـ النهايـة

اغمد رجل نصل مديته حتى المقبض في التراب بحركة متشفية ثم الصـق اذنيـــه بالارض ، وهتف بدهشة : « الارض تبكـي » .

ثم الصق اذنه بالارض ثانية ، وصاح بصوت مثقـل بالفرح : « لقد ماتت » .

وحين الصق اذنه بالارض مرة ثالثة ، لم يسمع سوى احذيـة الجنود تصك الارض برتابة .

يوسف .. يوسف الصغير الجميل الهالك

أمسك محمد بيده اليسرى بمرآة مستديرة ، ثم رسم بقطعة فحم شاربين على شفته العليا ، فأبصرت امه ما فعل ، وكانت جالسة في باحة البيت عـــلى كرسي خشبي واطىء وامامها طبق كبير مليء بالثياب والماء الحار ورغوة الصابون ، فصاحت بنزق : « ماذا تفعل ؟ » .

قال محمد : « صرت رجلا كبيرا » .

قالت الام : « الله لا يكبرك . وسخت وجهك . هيـــا اغســـله » .

فقصد محمد بحرة الباحة ، ومسح وجهـــه بالماء ، فصار وجهه أسود ، فأطلقت الام صرخة غاضبة ، وغمست بحركة مفتاظة قطعة قماش بالماء ، وقـــالت لمحمد آمرة : « تعال » .

ظل محمد متجمدا في مكانه ، فاضافت الام قائـلة : « ألم تسمع يا قرد ؟! » .

قال محمد : « ستضربينني » .

قالت الام : « لن أضربك » .

قال محمد : « احلفي بالله » .

قالت الام : « اذا لم تأت فورا نهضت وضربتك حتـى تولول » .

دنا محمد من أمه بخطى مترددة ، فجذبته الام اليهـا . ومسحت وجهه بقطعة القماش المبتلة بالماء الحار والصابـون ثم دفعته عنها وهي تقول : « هيا اذهب واقرأ دروسك » .

قال محمد بصوت محتج : « ولكن اليوم يوم عطلة » .

قالت الام : « اذن اقعد هادئا » .

وحاص محمد في الباحة ضجرا ، ثم دلف فجأة الـى المطبخ ، وغاب فيه لحظات ثم خرج منه ضاحك الوجه حاملا صحنا نحاسيا وملعقة ، وراح يدق الملعقة على ظهر الصحـن وهو يصيح : « يا دايم وحد الصايم » .

فصرخت الام : « يا قرد .. يا عفريت .. » .

فقاطعها محمد قائلا : « أنا مسحراتي » .

قالت الام : « هيا اخرج من البيت » .

قال محمد بلهجة متحدية : « واذا لم أخرج ، مـــاذا ستفعلين ؟ هل ستضربينني ؟ » .

وتقدم نحوها وهو يضيف قائلا : « اضربيني » .

قالت الام : « لن أضربك . الله سيضربك . اسمع . اذا لم تخرج الى الحارة فسأظل أولول حتـى يأتي الجيران فأقول لهم اني جننت وأنت السبب » .

قال محمد : « وماذا أفعل في الحارة ؟ » .

قالت الام : « العب هناك كما يلعب غيرك من الاولاد » .

وغادر محمد البيت ، ومشى في الحـــارة ، مقطب

الجبين ، محملقا الى الارض ، واضعا يديه في جيبي بنطاله ، وسمع بغتة صوتا يناديه : « محمد » .

فالتفت نحو مصدر الصوت ، فألفى ولدا أسمر الوجه، يقف قبالة حائط أبيض ، ممسكا بيده قطعة فحم . فقـــال محمد وهو يدنو منه : « سليم يا مجنون .. ماذا تفعل ؟ » .

قال سليم : « سأرسم حمارا » .

قال محمد : « ارسم على حائط آخر » .

قال سليم : « هذا الحائط هو الحائط الابيض الوحيد في حارتنا » .

قال محمد : «اذا رسمت عليـــه فسينتفون شعرك شعرة شعرة » .

فضرب سليم بيده على اليتيه وقال : « لينتفوا شعر هـــذه » .

قال محمد : « استح » .

في تلك اللحظة فتـح باب البيت ذي الحائط الابيض وخرج منـــه ولد وسيم الوجه ، ممشط الشعر ، انيق الثياب ، وما أن ابصر محمدا وسليما حتى اقترب منهمـا ، وقال لهما متسائلا بعداء : « ماذا تفعلان هنا ؟ » .

قال محمد بلهجة ساخرة : « اهلا عدنان بك » .

وقال سليم : « كنا نريد أن نبول على حائطكم ، ولكننا الآن غيرنا رأينا وسنبول عليك » .

فاحمر وجه عدنان ، وقال : « سأخبر ابي بمـا قلت فيضربك أبوك » .

قال سليم وهو يهمّ بالهجوم على عدنان : « سأضربك واضرب عائلتك » .

فأمسك محمد بسليم وهو يقول : « ضرب البنـــات عيب »

فضحك سليم ، وقال لعدنان : « قل لي .. أنت صبي ام بنت ؟! » .

فوضع محمد يده على كتف سليم ، وقال له : « اتركه ولنذهب » .

وهمّ محمد وسليم بالمسير . قال عدنان لهما بفضول : « الى أين ذاهبان ؟ » .

قال سليم : « الى جهنم . لماذا تسأل ؟ » .

قال محمد : « لعله يريد الذهاب معنا » .

قال عدنان : « قولا لي » .

قال سليم لمحمد : « قل له والا بكى » .

فكر محمد لحظات ثم قال : « سنذهب الى البساتين » .

قال سليم لعدنان : « ما رايك ؟ هل ستذهب معنا ؟ » .

قال محمد : « يذهب معنا ؟! انه لا يجرؤ على المشـي معنا خطوة واحدة . ستضربه الماما . ابناء الاكـابر يمشون مع ابناء الاكابر » .

قال عدنان : « وماذا ستفعلان في البساتين ؟ » .

قال محمد : « سنلعب » .

قال سليم : « وسنسرق التفاح والمشمش » .

قال محمد : « وسنسبح في النهر ونصطاد سمكا »

قال سليم : « وسنصطاد ضفادع » .

قال عدنان : « سأذهب معكما » .

فقال سليم لمحمد : « سمعت ما قاله ؟ قال انه يريد

الذهاب معنا ليسرق التفاح والمشمش مع ان الفواكه التي تدخل الى بيتهم كل يوم تكفي اهل الحارة جميعا » .

قال عدنان بلهجة رجاء : « خذاني معكما » .

قال محمد لسليم : « ما رايك ؟ انأخذه معنا ؟ » .

فقطب سليم جبهته ثم قال : « سنأخذه وأمرنا لله » .

واوشك محمد وسليم ان يسيرا ، ولكنهما توقفا لحظة تنبها الى ان عدنان ظل واقفا ، فقال له محمد متسائلا : « ما بك يا ولد ؟ غيرت رايك ؟ » .

وقال سليم لمحمد : « اتركه . الماما لا تسمح له بالابتعاد خطوتين عن باب البيت » .

قل عدنان : « لا .. لا .. سأذهب معكما ولكنني سأدخل اولا الى البيت ولن اغيب الا لحظات ، وسأقول لامي اني ذاهب لزيارة بيت عمي » .

قال سليم : « اذن سننتظرك خارج الحارة عند باب الجامع » .

قال محمد : « انتبه . لن ننتظر كثيرا . اذا تأخرت فسنذهب وحدنا » .

قال عدنان وهو يهرع نحو باب بيته : « لن اتأخر » .

وسار سليم ومحمد مبتعدين عن الحارة ، ثم وقفا قبالة باب المسجد .

قال محمد : « لن يأتي » .

قال سليم : « ظظ عليه اذا أتى وظظ عليه اذا لم يأت » .

ولم يطل انتظارهما ، اذ جاء عدنان بعد وقت قصير

وهو يهرول لاهثا مبتهج الوجه ، وقال : « لم اتأخر » .

قال سليم : « امش امش . الحكي سيتعبك » .

وسار الاولاد الثلاثة بخطا حثيثة قاصدين البساتين المحيطة بالمدينة . ولما بلغوها ، اطلق سليم صيحة مديدة مرحة وركض وهو يقول : « من يستطيع امساكي ؟ » .

فركض محمد وعدنان ، وحاولا امساكه ، ولكنه كان سريع الركض بارعا في المراوغة ، وفجأة ارتمى على عشب أخضر ، وقال لاهثا : « تعبت واستسلمت » .

وارتمى محمد قربه بينما ظل عدنان واقفا ، فقال له سليم : « تعال . لماذا انت واقف ؟ » .

قال عدنان : « ستتوسخ ثيابي » .

قال محمد : « ولماذا الخوف ؟ أمك لن تغسلها . ستغسلها خادمتكم وعندكم صابون كثير » .

وما ان هم عدنان بالاستلقاء على العشب حتى نهض سليم وامسك بغصن شجرة مقطوع ملقى على الارض ، ولوّح به كسيف ، وقال : « من يبارزني ؟ » .

فبادر محمد وعدنان الى البحث عن غصن ، فعثر محمد على ما يبغي ، وشرع يبارز سليم بحماسة ، وصاح عدنان وهو يشير الى شجرة : « هذه شجرة تفاح » .

فكفّ سليم ومحمد عن التبارز ، والتقيا الغصنين ، وهرعا الى شجرة التفاح ، وراحا يقفزان محاولين قطف التفاح ، فتعالت صيحة غاضبة اطلقها صاحب البستان الذي اقبل نحو الاولاد الثلاثة راكضا وملوحا بعصاه مهددا .

صاح سليم : « اهربوا » .

وركض الاولاد بأقصى قوة . ولما ابتعدوا وقفوا لاهثين محمري الوجوه .

قال محمد : « لو امسكنا لاشبعنا ضربا » .

قال عدنان : « لو ضربني فسأقول لابي فيأتي ويضربه » .

قال سليم : « كنا نسرق » .

قال عدنان : « ماما تقول ان السرقة عيب » .

فضحك سليم وعدنان ، ثم قال سليم وهو يتلمظ : « ولكن التفاح لذيذ الطعم » .

فقال سليم لمحمد وهو يشير الى عدنان : « من يسمعه يظن ان أهله يشترون التفاح من الصيدلية » .

ومشى محمد وسليم ، فتبعهما عدنان ، وبلغ الثلاثة ضفة نهر ، واختاروا بقعة معشوشبة تظللها اغصان شجرة هرمة .

وابتدأ سليم يخلع ثيابه بسرعة ، فقال عدنان مستغربا : « ماذا تفعل ؟ » .

ـ « سأسبح » .

وضحك عدنان فجأة ، وقال لمحمد وهو يشير الى سليم : « انظر ، انظر الى قميصه » .

ـ « ما به ؟ » .

ـ « مهترىء ووسخ » .

فوجم محمد ، ثم بادر الى خلع ثيابه بحركات سريعة ، فبدا قميصه الداخلي مرقعا باهت اللون .

وقال سليم لعدنان : « ولماذا لا تخلع ثيابك مثلنا ؟ هل ستنزل الى النهر بثيابك ؟! » .

قال عدنان : « لا اريد النزول في النهر ، ماؤه وسخ » .

قال سليم : « انت تكذب . انت تحب النزول الى النهر ولكنك خائف » .

ووثب سليم الى النهر ، وشرع يسبح وهو يصيح صيحات قصيرة ، وتبعه محمد ، وطفق الاثنان يتراشقان بالماء ضاحكين بصخب .

وصاح محمد مخاطبا عدنان : « تعال واسبح معنا » .

ـ « انا لا اعرف السباحة » .

ـ « سنعلمك » .

قال سليم : « انت بنت » .

قال محمد : « انه دجاجة » .

قال سليم : « انه يسبح في البانيو فقط » .

فاقترب عدنان من النهر ، فقال له محمد : « هيا تشجع . لا تخف . لن يأكلك النهر » .

قال سليم : « لن تصير رجلا ما دمت تخاف من ماء قليل » .

وخرج محمد وسليم من النهر يقطر منهما الماء وراحا ينطنطان .

وقال سليم لعدنان : « أما زلت خائفا ؟ » .

وقال محمد : « الامر بسيط . ارم بنفسك ثم حرك ذراعيك ورجليك تجد نفسك تطفو وتسبح احسن منا . انظر » .

ورمى محمد بنفسه الى ماء النهر ، وطفق يسبح ، ثم غادر الماء ، وقال لعدنان : « أرايت ؟ هيا افعل كما قلت لك »

قال سليم لمحمد : « أتركه . اني أقول لك انـه بنت فلا تصدق » .

وخلع عدنان ثيابه ، ودنا من النهر متوجسا ، فصفق محمد وسليم ، وصـــاح محمد : « هيا يا بطل .. أرنـا شجاعتك » .

فقال سليم لمحمد : « اتراهن ؟ انه لن يجرؤ على غمس أصابع قدميه في الماء » .

وفجأة قذف عدنان بجسده الى النهر ، وراح يضرب الماء بيديه ورجليه بحركات جنونية ، ثم صاح بذعر : « اني أغـــرق » .

فظل محمد وسليم يراقبانه وهما متجمدان في مكانهما بينما كان عدنان يغوص تارة ويطفو تارة أخرى ، ولا يكف عن الصياح مستنجدا ، وحمله ماء النهر بعيـدا وهو يقـــاوم ويولول .

وساد الصمت شيئا فشيئا ، وعندئذ ارتدى محمـد وسليم ثيابهما دون أن يتبادلا كلمـــة أو نظرة . ثم انحنى سليم ، وحمل ثياب عدنان ، وقذف بها الـى ماء النهر ، ثم انطلق الاثنان يمشيان بوجهين واجميـن وخطـى ثابتـة مبتعدين عن النهر .

الزهرة

كانت يدا خشنة نحيلة مدفـــونة في التراب . وقد تاقت الى الشمس والمطر والسماء الزرقاء والريح . فزحفت ببطء طوال أعوام متجهة الى أعلى . وتخضبت بدمهـــا النازف وعذبها طويلا ألم قاس ، لكنها لم تتخل عن محاولتها حتى تمكنت من أن تنبثق من التراب كانفجار صغير مباغت. وترنحت نباتا شاحبا غريبا ، منتشية بالضوء والهـــواء والاصوات ، متلهفة الى ما ينسيها ظلمة التراب ، وتلمست أصابعها المرتعدة سطح الارض ، وتجمدت لحظـــة أمسكت بزهرة ، وغمرها حنو عارم مبهم ، وعصف شوق في شرايينها مناديا نهدا كأن اجمل وردة بيضاء ، وامتزج النداء بصرخة انطلقت يوما من حنجرة رجل تهاوى أرضـــا ملطخ الصدر والفم بالدم .

وركض نداء اليد وصرخة الرجل في شوارع صاخبة ، وفتشا البيوت بيتا بيتا ثم تلاشيا ذليلين .

وتذكرت اليد الخشنة النحيلة المراة التي تملك جسدا من نجوم بيضاء دائمة الارتعاش .

وضحكت المراة ، وهمست بمرح : « لنفعل ما نشاء وليفعل اهلي ما يشاؤون » .

وضحك الرجل وقال : « سنعيش كما نريد ولن نبالي بأحد » .

والتصق جسداهما عشبا اخضر ووردا أحمر ونارا ودماء ، ولكن السكاكين اقبلت . وحاول الرجل أن يحمي جسده بيديه الخشنتين النحيلتين ، غير ان السكاكين استمرت في مطاردته وطعنه حتى سقط كورقة شجرة يابسة ، ودفن في بستان اخضر ، وفني اللحم الممزق الدامي رويدا رويدا في التراب، ولكن اليد الخشنة النحيلة العاشقة بقيت حية .

ووهنت قوى اليد ، وأوشكت اصابعها أن تفلت الزهرة ، ولكنها تشبثت بها باصرار .

وجاء في تلك اللحظة خمسة رجال وبرفقتهم امراة وبنت لا يتجاوز عمرها العاشرة ، وقعدوا على بساط بالقرب من اليد الخشنة النحيلة .

قالت المراة متصنعة التذمر : « انتم خمسة . ماذا سأفعل بكم ؟ ستتعبونني كثيرا » .

قال رجل : « ماذا تقترحين ؟ » .

قالت المراة : « أن تساعدني بنتي » .

قال الرجل : « لكنها صغيرة » .

فصاحت البنت بصوت رفيع حانق متحد : « هيا جربني وستجد اني افضل من أمي وستدفع لي اكثر مما ستدفع لها » .

فارتعشت اليد الخشنة النحيلة ، وافلتت الزهرة ، وانسحبت هاربة الى ظلمة التراب .

في ليلة من الليالي

يجيء الليل كفناً اسود ، فيبتعد ابو حسن بخطى هارب عن حارته الخرساء ، وازقتها الملتوية المظلمة ، وناسهـــا العجاف ، وبيوتها المرثة المتلاصقة ، ومقهاها الذي يشبـــه تابوتا مهترىء الخشب . وحين يبلغ الشوارع العريضة ، تبهره ضوضاؤها وسياراتها المسرعة وناسها المتأنقون وانوارها الساطعة المتعددة الالوان ، فيمشي بخطى ذاهلـة متباطئة ، مشدود القامة ، مرفوع الراس ، ذا وجه متجعد ، شديـد الزهو بشاربيه الكثين اللـــذين كانا يغريان عيـــونا كثيرة بالتحديق اليهما بفضول ودهشة . ايه ! انت ابو حسن . ويحق لك ان تنال الاعجاب والاحترام . انت خير الرجال . خنجرك البرق الذي يعقبه مطر مـن دم ، وقلبك فضـة ، ويدك من صخر الجبال . انت رجل لا كبقية الرجال . تفرح فتصير بستانا اخضر . تغضب فيحمل المـوت نعشا فارغا وينتظر اشلاء فريسة . تحب فتخلص . لا تغش ولا تكذب. لا تتملق ولا تنافق . الاعور اعور والاعمـــى أعمى . تضرب

فتدمي ولا تقتل . تعادي فيختفي من تعاديه . تصـــادق فتهب حتى روحك لمن صادقته . عمرك اكثر مـــن اربعين سنة ولكنك حين تلتقي بجسد امراة تبقى في دمها حتـــى القبر . تشرب العرق وكأنـــه ماء ولا تسكر . تخـــوض مشاجرات تسيل فيها الدماء وكأنك تدخن سيجارة عـــلى ضفة نهر . يعلو صوتك الخشن بموال فتبكي الحجارة . انت الرجل الذي يكنّ له الرجال والنساء والاطفال في حارتـه المحبة والاجلال . اذا تشاجرت امراة مع زوجها لا تقصـد بيت اهلها شاكية انما تلجأ اليك واثقة بأن ما لحق بها مـن ظلم سيزول لا محالة . يحبك الاطفال ويصرخون مستنجدين بك لحظة تضربهم امهاتهم . وقطط الحارة ساعة تجوع تأتي اليك وهي تموء . واذا تخاصم صديقان فلا احـــد غيرك يستطيع بكلمة ان يوقد من جديد ما انطفأ في قلبيهما من ود. والشاب اليتيم اذا رغب في الزواج من فتاة تصبـــح انت عائلته . كنت دائما تنصر الضعيف المظلوم ، وتجابه القوي الظالم غير هياب . ولم تعرف يوما أحنيت فيـــه راسك لهوان او ذل .

ويبتسم ابو حسن ابتسامة مغتبطة متفاخرة بينما هو مستمر في سيره المتمهل على ارصفة مكتظة برجال لا شوارب كثة لهم ، وبنساء يمشين بخطوات واثقة شامخات الرؤوس، معطرات ، انيقات ، جميلات كدمى غالية الثمن . انظر يا ابو حسن انظر . رجال كالنساء ونساء كالرجال . لا تعجب ولا تستنكر . هذه هي سنة الحياة ، فلا شيء يبقـى ويدوم ، وكل زمان له رجاله ونساؤه .

ويلمح ابو حسن فتاتين في مقتبل العمر ، جميلتين اكثر من زهرة ياسمين في الصباح ، وكانتا ترنوان الى شاربيه الكثين بنظرات مستغربة ، فيتزايد اعتداده بشاربيه، وتلمسهما اصابع يده اليمنى بحركة مزهوة .

وتهامست الفتاتان ثم ضحكتا ضحكا ساخرا ، ففوجىء ابو حسن ، وارتبك ، وحث خطاه مبتعدا عن الفتاتين ، وسلك طريقا فرعية تضيئها مصابيح كهربائية ، شاحبة النور ، متدلية من اعمدة خشبية تتناثر متباعدة . انت ؟! انت ابو حسن ويسخر منك فتستحي كبنت ما باس فمها الا امها ؟! آخ يا زمن .. انت كلب يعض صاحبه .

وتناهى الى سمع ابو حسن اغنية آتية من احدى البنايات من نافذة مفتوحة مضاءة ، فتوقف عن السير ، واستند الى جذع شجرة ، وكان المغني اجش الصوت ، واغنيته مبهمة الكلمات ، غير ان صوته كان كصرخة مخنوقة لطير فقد جناحيه بغتة وهوى في فراغ لا ارض له .

وتخيل ابو حسن الفتاتين وقد اختطفتا وترقصان مرعوبتين عاريتين في غرفة يحتشد فيها عدد من رجال ذوي شوارب كثة واعين مفترسة ، ثم تذكر امراة جميلة من حارته ، وكانت تقول له : « تزوجني وساكون خادمتك » ولكن ولولة انبثقت ذات صباح من بيتها ، جللت الحارة وسكانها بلون اسود . ولم يمش ابو حسن وراء نعشها ، انما اختبأ في غرفته ، ودفن وجهه في الوسادة ، ولم يستطع ان يبكي ، ولكن صوته كان يتصاعد بين الحين والحين

اجش مبحوحا اكثر حزنا من بكاء الام التي فقدت ابنتها .

وتعالت صرخة استغاثة حادة من امراة ، وابصر ابو حسن رجلا يركض باتجاهه ، تتبعه صيحات تقول انه لص وتحث على امساكه .

ولما اقترب الرجل الهارب من ابو حسن ، حاول امساكه ، ولكنه زاغ ببراعة ، وافلت منه ، واستانف ركضه السريع دون أن يبالي باسترداد ما سقط من يده .

وانحنى ابو حسن على الارض ، وتناول ما سقط من الهارب ، فاذا هو حقيبة يد نسائية ، فتأملها وهو يقول لنفسه بسخرية : « ماذا سيحكي اهل حارتي ان ابصروا ابو حسن يحمل ما تحمله النساء ؟! » .

واقبل الذين كانوا يطاردون الرجل الهارب ، وبرفقتهم شرطي بدين ، فقال لهم ابو حسن بلهجة اعتذار واسف : « اللعين كان كالزئبق وهرب مني » .

فصاحت امراة وهي تشير الى ابو حسن : « اقبضوا عليه . هو اختطف حقيبتي ، وها هي بيده » .

قال ابو حسن : « عيب يا امراة ! ما هذا الحكي ؟! » .

فانتزعت المراة الحقيبة من يده ، وصاحت : « انتبهوا. سيهرب » .

فسارع الشرطي البدين وعدد من الرجال الى امساكه، وقال له الشرطي : « هيا ، امش » .

قال ابو حسن متسائلا بدهشة : « الى اين ؟ » .

قال الشرطي : « الى اين ؟! الى المخفر طبعا . لعلك ظننت اننا سنأخذك الى كباريه ؟! » .

فحاول ابو حسن الكلام والاحتجـــاج ، ولكن شتائم كثيرة انهالت عليه ، فسكت ، وسار برفقة الشرطي يحيط به رجال ونساء واطفال ، فيتكلمون بأصوات عالية ، ويشيرون اليه قائلين انه لص .

ولم يستمر السير طويلا ، اذ كان مخفر الشرطـــة قريبا . واقتيد ابو حسن توا الى غرفة رئيس المخفر الذي كان شابا ذا وجه أبيض وسيم حليق وعينيـــن صارمتين واجمتين ، ويجلس وراء طاولة على سطحها جرائد واوراق وتلفـــون .

وتقدم الشرطي من رئيس المخفر ، وشد قامته ، ورفع يده محييا ، ثم تكلم ملخصا ما جرى ، فقال ابو حســـن مقاطعا : « كل ما يقوله غير صحيح » .

فقال رئيس المخفر لابو حسن : « اخرس . لا تتكلم . تتكلم فقط عندما آمرك بالكلام » .

وصاحت المراة صاحبة الحقيبة : « هو اختطف حقيبتي من يدي وهرب » .

وتلتها أصوات عديدة تؤيدها ، ويضيف أصحابهـــا قائلين : « كلنا رأيناه ولحقنا به حتى قبضنا عليه » .

وقال الشرطي : « ضبطته يا سيدي والحقيبة بيده » .

ظل رئيس المخفر صامتا ، ووجه الـى ابو حسن نظرة طويلة متفحصة ثم قال له بازدراء : « تفضل .. جـاء الآن دورك . هيا اسمعنا فصاحتك . ما لك ؟! هل ابتلعت لسانك يا لص ؟ » .

قال ابو حسن : « انا لست لصا » .

قال رئيس المخفر بحنق : « اذن من انت ؟ لعلك شيخ جامع ولا ندري ؟! » .

قال ابو حسن : « انا رجل .. والرجـــل لا يسرق امراة » .

فنهض رئيس المخفر عن كرسيه ، وترك طاولته ، ودنا من ابو حسن ، وقال له هازئا : « ما شاء الله ! انت لص ، ولص وقح أيضا » .

قال ابو حسن : « انا لم اختطف الحقيبة . رايتهـــا تقع من سارقها فالتقطتها » .

قال رئيس المخفر : « اسمع . الانكار هنا لن ينفعك . من الافضل لك ولنا ان تعترف بما فعلت والا جعلتك تتمنى لو ان أمك لم تلدك » .

فأمسك ابو حسن بأصابع يده اليسرى احد شاربيه ، وقال : « شاربي شارب امراة اذا كنت اكذب » .

قال رئيس المخفر : « تفو عليك وعـــلى شواربك . لا وقت لدي للقيل والقال . تكلم والا كسرت راسك » .

قال ابو حسن محمر الوجه : « لم يخلق بعد الشخص الذي يكسر راس ابو حسن . اسأل عني أهل حارتي فتعرف من هو ابو حسن » .

قال رئيس المخفر وقد ازداد غيظا : « يا كلب .. اذا لم تعترف سأضربك بالحذاء واضرب أهل حارتك » .

قال ابو حسن : « لا داعي الى التمادي في الكلام . كن رجلا ، والرجل يعرف قدر الرجال » .

فهز رئيس المخفر راسه ، وقال بصوت حاول أن يكون هادئا : « انت بالتأكيد بحاجة الى تربيـــة وتأديب ، وقـد وقعت في يد من يتقن التعامل مع أمثالك » .

والتفت الى الشرطي البدين ، وقال له آمرا بخشونة : « اذهب كالبرق واحضر مقصا » .

قال الشرطي : « أمرك سيدي » .

ثم غادر الغرفة بخطى سريعة. واتجه رئيس المخفر نحو طاولته ، وضغط باصبعه علـى زر جرس ثم وقف متصلب القامة مقطب الجبين حتى دخل الغرفة شرطي أصفر الوجه وقال بصوت جامد : « أمر سيدي » .

فقال رئيس المخفر وهو يشير الـــى المراة صاحبة الحقيبة والشهود : « خذهم وسجل اقوالهم » .

فنفذ امره توا ، وخوت الغرفة الا من رئيس المخفـر وابو حسن ، وعندئذ قال ابو حسن بصوت متهدج : « انظر الي . هل يمكن أن اكون لصا يسرق امراة ؟! » .

لم يجب رئيس المخفر انما ازداد وجهه صرامة وامسك بسماعة الهاتف ، ورفعها ، وادناها من فمه ، وتكلم بصوت خفيض ، ثم اعادها الى مكانها ، واسترخى على كرسيـــه صامتا يحدق بهزء ووعيد الى ابو حسن الـــذي كان يقف منفرج القدمين مضطربا حائرا .

وفتح باب الغرفة ، ودلف الى داخلها الشرطي البدين حاملا مقصا كبيرا ، ثم تبعه عدد من رجال الشرطة الذيـن نظروا توا الى ابو حسن نظرات كره واحتقار ، فنهض رئيس المخفر واقفا مبتهج الوجه ، وتنـــاول المقص من الشرطي

البدين ، ثم قال لرجال الشرطة وهو يشير بالمقص الـى أبو حسن : « امسكوا بهذا الكلب » .

فصاح أبو حسن : « انا كلب يا نصف رجل ؟! خسئت »

وهجم على رئيس المخفر وهو يزعق بغضب ، غير ان رجال الشرطة امسكوا به ، فقاومهم محـــاولا الافلات من أيديهم ، فانهالت عليه صفعاتهم وركلاتهم ولكماتهم . كانوا يضربونه بشراسة وكراهية كأنه ذبح أمهاتهم ، وظلوا يضربونه حتى تلاشت مقاومته واستحال بين أيديهم الى جسم شبيه بقطعة قماش مهترئة ، وعندئذ قال رئيس المخفر لرجـاله : « امسكوا به جيدا » .

وأضاف مخاطبا الشرطي البدين : « تحرك .. امسك براسه ، وان تحرك اقل حركة وضعت رجليك في الفلقة ».

فسارع الشرطي البدين الى الامساك بشعر أبو حسن، وشده الى الوراء شدا عنيفا ، فبات وجه أبو حسن فريسة عـــزلاء .

ابتسم رئيس المخفر ، واقترب من أبو حسن ويـده تحمل المقص ، وقال له : « والآن ستدفع ثمن سبك وسترى ماذا يفعل نصف رجل » .

ودنا المقص من شاربي أبو حسن ، فذعر ، وحـاول التملص من أيدي رجال الشرطة ، ولكن أيديهم كانت تقيده وتشله عن أي حركة ، فصاح بضراعة : « والله انا بريء » .

فازداد المقص دنوا من شاربي أبو حسن ، فصاح وقد طغى عليه رعب شديد : « دخيلكم » .

قال رئيس المخفر : « قل انك سرقت فـــلا يمسك اذى » .

وران الصمت لحظة ، ثم قـــال أبو حسن بصوت مرتعش : « أنا سرقت الحقيبة من المرأة » .

فضحك رئيس المخفر ، وقال باحتقار : « الى متـــى ستظل البلد تحوي أمثالك ؟! » .

وانقضّ المقص على شاربي أبو حسن ، وقضى عليهما بحركات متأنية متشفية ، بينما كان أبو حسن يصرخ صراخا مديدا أجش مبحوحا .

وخطا رئيس المخفر نحو طاولته ، ورمى المقص عـلى سطحها ، وقال لرجاله : « ماذا تفعلون ؟ أيطربكم صوتـه ؟ اسكتوه » .

فبادروا الى ضرب أبو حسن ثانية ضربا قاسيا حتـى ارغموه على السقوط ارضا ، ولكنه استمر يصرخ ويشتم ، فنزعوا حذاءه ، ورفعوا قدميه الى أعلى ، وهوت عصا رفيعة على باطن القدمين بضربات قصيرة متلاحقة ، فصـــاح أبو حسن : « سأذبحكم جميعا يا أولاد الزنا ولو بقي من عمري يوم واحد » .

قال رئيس المخفر بينما كان يعـــاود الجلوس وراء طاولته : « استمروا في ضربه حتى يسكت . أسكت . لا أريد سماع اي صوت منك » .

والفى أبو حسن نفسه بعد حين يضغط بأسنانه على شفته السفلى خانقا الصراخ المتوجع الذي يريد ان ينفجر خارج الفم المدمى .

وحينئذ قال رئيس المخفر لرجاله : « اتركوه » .

ثم وجه الكلام الى أبو حسن : « هيا انهض وقف على قدميك » .

فأطاع أبو حسن ، ووقف بصعوبة مستجمعا كل ما بقي من قواه كي لا يتهاوى على الارض ، فقال له رئيس المخفر : « هيا احمل حذاءك » .

فنفذ ابو حسن الامر وهو يئن انينا خافتا ، ثم وقف مقوس الظهر وكل يد تحمل فردة حذاء .

قال له رئيس المخفر : « قل لي يا أبو حسن .. انـت رجل أم امرأة ؟! » .

لم يجب أبو حسن ، فقال رئيس المخفر بحدة : « انطق. الم تسمع ما قلت ؟ انت رجل أم امرأة ؟ » .

قال أبو حسن : « أنا طبعا رجل » .

قال رئيس المخفر بصوت مرح : « كذبت . انت امرأة . هيا تكلم وقل انك امرأة . ساغضب اذا لم تقل انك امرأة . وانت صرت تعرف ما يحدث حين أغضب » .

قال ابو حسن بصوت خافت : « أنا .. امرأة » .

قال رئيس المخفر : « لم أسمع ما قلت . تكلم بصوت عال . أتظن انك توشوش حبيبتك ؟! » .

قال أبو حسن بصوت مرتفع وهو ينظر الى الارض : « انا امرأة » .

فقهقه رئيس المخفر ، وقال : « احمد ربك لاننا هنـــا لسنا من الشاذين جنسيا » .

فضج رجال الشرطة بالضحك ، فقال لهم رئيس المخفر

بلهجة آمرة مشمئزة : « خذوه ، وسأراه فيما بعد لاتابع تربيته وتأديبه » .

فانقضّ رجال الشرطة على ابو حسن ، وجرّوه الى خارج الغرفة وهم يركلونه ويصفعونه ويشتمونه ، واقتادوه الى احدى الغرف ، ودفعوه اليها واقفلوا بابها . وكانت غرفة تخلو من اي أثاث ، ولا نوافذ لها ، ويتدلى من سقفها مصباح كهربائي ضعيف النور ، فتهاوى أبو حسن على ارضها وهو يئن متوجعا .

وسمع فجأة صوتا رفيعا يقول له بنبرة متسائلة : « ضربوك كثيرا ؟! لا تزعل .. الضرب تسليتهم الوحيدة » .

فرفع ابو حسن راسه مستطلعا ، فرأى ولدا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، وكان قاعدا على الارض ، مسندا ظهره الى الحائط ، فسأله ابو حسن باستغراب : « ماذا تفعل هنا ؟! » .

اشار الولد بيده نحو الباب ، وقال : « هم قبضوا عليّ » .

ـ « لاي سبب ؟! » .

ـ « لم افعل شيئا » .

ـ « قبضوا عليك دون أن تفعل شيئا ؟ » .

ـ « ذبحت أمي » .

فصاح ابو حسن مرتاعا : « الله يلعنك .. ماذا قلت ؟ » .

ـ « ذبحت أمي . كانت تطهو طعاما لا تأكله حتى الكلاب الجائعة » .

وضحك الولد بمرح ، واشار الى باب الغرفة ، وقال :

« مساكين ! جنوا وهم يفتشون ولكنهم لم يعثروا على السكين » .

وخيل لابو حسن انه غارق في سبات عميق ويشاهد حلما مرعبا ، ولاذ بالصمت ، وحدق الى الولد مذهولا متناسيا الالم الذي يحرق عظمه ولحمه ، وكان الولد ذا وجه اسمر وديع وشعر أسود طويل ناعم .

قال الولد : « أريد أن أنام » .

قال أبو حسن بصوت فظ . « نم . من يمنعك ؟ » .

قال الولد : « تعودت ألا أنام الا بعد أن تروي لي أمي حكاية » .

قال أبو حسن : « اخرس ونم » .

قال الولد : « احك لي حكاية » .

فظل أبو حسن ساكتا يحملق واجما ، فقال له الولد : « اذا حكيت لي حكاية فسأعطيك سكينا تذبح مئة شخص » .

فبدت في عيني أبو حسن نظرة دهشة ، فسارع الولد الى خلع فردة حذائه ، واخرج منها سكينا ذات نصل طويل رفيع رقيق ملطخ بدم جاف ، ولوح بها قائلا : « ها هي .. ظننت اني أكذب عليك ؟ » .

مدّ أبو حسن يده نحوه قائلا بلهجة آمرة : « هاتها » .

فأعطاه الولد السكين ، وما ان امسك ابو حسن بها حتى التفت أصابعه حول مقبضها بحركة ضارية .

واستلقى الولد على الارض ، وقال بصوت متوسل : « هيا احك لي حكاية » .

ساد الصمت هنيهات ، ثم قال ابو حسن بصوت

رتيب : « كان في سالف العصر والاوان رجل اسمه مصطفى، وكان فقيرا لا يملك من متاع الدنيا سوى شاربيه . وفي يوم من الايام اصدر ملك البلاد امرا يقضي بأن يحلق كل الرجال في مملكته شواربهم ، فأطاع الجميع امر الملك ما عدا مصطفى الذي ابى التخلي عن شاربيه ، فاعتقل ، وضرب واهين وسجن ، ثم اخرج من السجن ليمثل بين يدي الملك وينال ما يستحق من جزاء .

سأل الملك مصطفى : « لماذا لم تطع امري وتحلق شاربيك ؟ الا تعرف عقاب من يخالف امرا من اوامري ؟! » .

قال مصطفى للملك : « انا ملك يديك وتستطيع أن تفعل بي ما تشاء . انا ارحب بأن يقطع راسي ولكني لن ارضى بأن احلق شاربي » .

ابتسم الملك بمكر ، وقال : « سأمنحك ألف دينار اذا حلقت شاربيك » .

قال مصطفى : « لا » .

قال الملك : « لا تكن عنيدا متسرعا . اسمع . اتريد اكثر ؟ حسنا . ساعطيك الف الف دينار » .

قال مصطفى : « كل ما في الدنيا من ذهب لا يساوي شعرة من شاربي رجل » .

قال الملك : « ساعينك وزيرا لي » .

فظل مصطفى مصرا على الرفض ، فقال الملك : « ساعينك رئيسا لوزرائي » .

قال مصطفى : « افضل ان اكون شحاذا . شحاذ بشاربين افضل من رئيس وزراء بلا شاربين » .

قال الملك : « ساجعلك شريكي .. تحكم مملكتي كما احكمها » .

فلم يتراجع مصطفى عن رفضه حلق شاربيه ، فأطرق الملك براسه وفكر ساعة ، وتكلم بعدها ، وقال لمصطفى : « انت فعلا رجل . وقد اثبت انك الرجل الوحيد في مملكتي ، فاحتفظ بشاربيك وساكافئك خير مكافاة » .

وزوج الملك مصطفى من ابنته التي كانت اجمل امراة في الدنيا .

واحب مصطفى بنت الملك اشد الحب ، وعاش معها أشهرا بسعادة وهناء ، حتى جاء يوم افاق فيه مصطفى من نومه صباحا فاذا بنت الملك عابسة الوجه مكتئبة ، فسالها مصطفى بلهفة عما بها ، فقالت له : « اتسال وانت السبب ؟ »

قال لها مصطفى متعجبا محتارا : « انا ؟! لا عاش من يزعلك . قولي لي مت فألبي رغبتك دون تردد » .

قالت بنت الملك : « انا متضايقة جدا من شاربيك ، ولو تخلصت منهما فلا بد انك ستصير اجمل رجل وساحبك اكثر » .

فاستنكر مصطفى كلامها ، وحاول اقناعها بخطأ ما قالته ، ولكنها لم تقتنع ، وقالت له : « لن تبصر وجهي بعد اليوم الا اذا حلقت شاربيك » .

ونفذت بنت الملك وعيدها ، وحبست نفسها في مخدعها ، واقفلت بابها من الداخل .

وتعذب مصطفى طويلا لما حرم من رؤية من يحب ، ولكنه صبر وتجلد الى ان جاء يوم ضعف فيه واستسلم لصوت قلبه فحلق شاربيه ، وهرع الى مخدع بنت الملك ،

وقرع بابه وهو يهتف : « آفتحي .. فعلت ما ترغبين فيه » .

وفتحت بنت الملك باب مخدعها . وما ان رأت مصطفى حتى تراجعت الى الوراء وهي تضحك ضحكـــا متواصلا ، فدنا مصطفى منها متلهفا اليها وحاول معانقتها ، ولكنهـــا قفزت مبتعدة عنه وهي تقول بجفـــاء : « اياك والاقتراب منـــي » .

قال مصطفى : « لماذا ؟ » .

قالت بنت الملك : « اذا اردت معرفة السبب فاذهب الى المرآة وانظر فيها ، فقد صرت دون شاربين مثيـــرا للضحك اكثر من اي مهرج في مملكة ابي ، وصرت أيضـــا قبيحا الى حد ان كلبة عمرها مئة سنة لا تقبل بالنظر اليك نظرة واحدة » .

لما سمع مصطفى كلام بنت الملك حزن حزنا شديدا ، واستل خنجره وطعن به قلبه طعنة قوية وهو ينظر الـــى بنت الملك نظرة وداع وحب ولوم .

وصاحت بنت الملك مستاءة بينما كان مصطفى يترنح موشكا على السقوط ارضا : « ابتعد .. ابتعد عن سريري لئلا تقع عليه فتتسخ اغطيته بدمك » .

وعندما علم الناس بمـــوت مصطفى وما جرى له ، حزنوا عليه كثيرا وبكوا ... » .

بتر ابو حسن كلامه ، ونظر الى الولد ، فألفاه متمددا على الارض ، مغمض العينين ، مستسلما بوداعة لنوم عميق، فازدادت اصابعه الملتفة حول مقبض السكين شراسة .

وزحفت السكين رويدا رويدا نحو الولد ، ثم توقفت مرتجفة غاضبة ، حائرة بين قلب ابو حسن وعنق الولد .

الفندق

جاء اكرم الاسماعيل من مكان بعيـد دونما حقيبة ، ولما ترجل من السيارة السوداء اللون ووطىء الارض تمطـى وهو يتنهد بارتياح مغمورا بشمس موشكة علـى الافـول . ثم استنشق الهواء بنهم متطلعا فيما حوله ببهجة وفضول . وسار بخطى متمهلة . وكان للسماء وقتئذ لـــون رمـادي . وكانت احجار المباني باهتة البياض ، والناس يمشـــون متجهمين صامتين . وحث اكرم خطاه لحظـــة بلغ شارعا تتناثر على جانبيه المقاهي والمطاعم ودور السينما والمحـال التجارية ، ولكنه ما ان ابصر أول فندق حتى داهمـه تعب مباغت ، فدلف توا الى داخل الفندق ، واجال نظرة خاطفة في ردهة واسعة معتمة تفوح من مقاعدها ومناضدها رائحة عفنة ، فاشمأز وهم بالانسحاب ، غير انه لمح رجلا عجـوزا قابعا خلف مكتب خشبي ، وكان يحدق الى اكرم باستغراب ممزوج بازدراء ، فوجد اكرم نفسه يقترب منه ويقول له : « أريد غرفة » .

قال العجوز بصوت بلغ سمع اكرم شبيها برائحـــة الردهة : « أتريد غرفة واحدة ؟ » .

ــ « نعم ، غرفة واحدة » .

ــ « غرفة بسرير أم بسريرين ؟ » .

ــ « غرفة بسرير واحد » .

ــ « اذن تريد غرفة بسرير واحد ؟ » .

ــ نعم . غرفة بسرير واحد » .

ــ « هات هويتك » .

وطفق العجوز يتمتم بكلمات مبهمة بينما كان يسجل اسم اكرم في دفتر كبير مفتوح أمامه ، ثم أعاد الهوية الى اكرم ، وتناول مفتاحا معلقا على لوحة خشبية خلفه ، وصاح بصوت ممطوط : « فؤاد » .

فتعالى صوت من احدى الغرف :« نعم » .

ومرت لحظات عاود العجوز بعدهـا الصراخ بغضب : « فؤاد يا كلب » .

ــ « نعم » .

ــ « تعال حالا » .

فأتى فتى أشقر الشعر لا يتجاوز عمره العاشرة ، ودنا من العجوز محمر الوجه يلهث ، فرفع العجوز يده بحركـة فجائية ، واهوى بها على وجه الفتى ، ثم أعطاه المفتاح وقال له وهو يشير الى اكرم : « خذه الى الغرفة رقم سبعة » .

وتبع اكرم الفتى في دهليز طويل على جانبيه أبـــواب غرف كثيرة أثار عددها دهشة اكرم وعجبه .

وفتح الفتى احد الابواب ، قال لاكرم : « هذه غرفتك »

قال اكرم وهو يبتسم : « اسمك فؤاد ؟ » .

فهز الفتى راسه بالايجاب ، ثم همس : « اقفل الباب حين تريد النوم » .

قال اكرم متسائلا بدهشة : « لمـاذا ؟ » .

فتلفت فؤاد فيمـا حوله شاحب الوجه ، وقال : انهم يأتـون فـي الليـل » .

« ــ من هم الذيـن يأتون في الليل؟ »

فهم فؤاد بالجواب غير ان صوت العجوز تعالى فـي تلك اللحظـة منادياً ، فبدا الرعب الشديد على فؤاد وهرول في الدهليـز مبتعدا .

وتجعد وجه اكرم حين اصبح في الغرفة وتقوس ظهره، وبدا وكأن شبابه قدولى على حين غرة وسارع الى الاستلقاء على السرير دون ان يحاول خلع ثيابـه ، واغمض عينيـه . وخيل اليـه بعد هنيهات انه يسمع فؤادا يصرخ بصوت مفعم بالذعر والالم ، فقفز واقفا ، واتجه نحـو باب الغرفة واراد ان يفتحه ، ففوجيء به موصدا من الخارج ، فتصبب العرق من جبينه ، وتراجع نحـو السرير وجلس على حافته بينمـا كـان صراخ فؤاد يشتد ممتزجا بصوت العجوز وصـــوت امـراة .

وتنبه اكرم الى ان الغرفة دون نوافذ ، وظل لحظات دون حراك ثم خلع ثيابه واستلقى على السرير وهو يرتجف ،وغطى جسمه كله باللحاف محاولا الا يسمع سوى صـوت انفاسه المتهدجـة المتسارعة ، ومـا لبث ان استسلم لنوم عميق .

وافاق من نومه بغتة على صرير باب الغرفة ، فحاول فتح عينيه والنهوض من السرير ، فأخفق وحاول ان يتكلم ولكـن شفتيه تقلصتا دون صوت .

وانصت ، فبلغه وقع اقدام كثيرة على ارضية الغرفة، ثم سمع صوت امراة تصيح بذعر : « اتركوني » . فضحك رجال مجهوتون ضحكات خشنة ساخرة بينما صاحت المراة: « ابعدوا ايديكم عني » .

وتعالت ضجة انبثقت منها صيحات المراة متقطعة مستفيثة ثم تلاشت رويدا رويدا ، ولم يبق سوى اللهاث المحموم وانين المراة التي ظلت ترد : « ماما .. ماما .. ».

وأحس اكرم ان انين المراة قد تحول الى نار تسللت الى شرايينه ، فحدق بنشوة الى الرجال الذين كانوا عراة يتعاقبون على جسد المراة وكانت المراة دميمة هرمة مستلقية على ظهرها ، مفتوحة الفخذين ، لها نهدان مترهلان يشبهان جوربين عتيقين ، فضحك اكرم بمرح ، وحاول النهوض من السرير ، فعجز ، فند عن حنجرته صوت كعواء ذئب جريح ، واغمض عينيه ، ليسمع بعد قليل رجالا يقولون باصوات متوعدة :

« سنضربك »

« سنضربك حتى تموت » .

« سنضربك حتى تتمنى الموت » .

« اعترف »

وسمع اكرم صوت رجل يهتف بضراعة : « بماذا اعترف ؟ »

فتعالت اصوات الرجال مهددة : « تكلم » .

« اعترف والا ندمت » .

« اعترف بجريمتك » .

قال الرجل متسائلا : « اي جريمة ؟! »

فتعالت صيحة آمرة من اكرم : « اضربوه » .

وضرب الرجل بقسوة بينما كان اكرم يصيح : « اضربوه .. اضربوا » .

وفجأة ساد الصمت .

« مات » .

« ماذا سنفعل ؟ » .

« فلندفنه » .

« اين ؟ » .

« هنا في هذه الغرفة » .

فقهقهه اكرم هازئا ، وقال : « هذا اقتراح غبي »

واهوى بالفأس على جثة الرجل الميت وقطعها الى قطع صغيرة ثم حملها الى المرحاض ، وترك المياه تتدفق بعنف وتحمل معها اللحم الممزق . وتزايد وهن اكرم ، وقال لنفسه : « لم افعل ما فعلت . انا الآن نائم ، وما حدث مجرد حلم مزعج » .

وسمع في تلك اللحظة ضحكة طفل اعقبها صوت رجل متذمر يقول : « نم والا زعلت منك »

قال الطفل : « انا جائع » .

قال الرجل : انت اكلت لحم امك كله ولم يبق منه شيء فنم دون قيل وقال » .

قال الطفل : لا استطيع النوم وانا جائع » .

قال الرجل : « هل ستنام اذا حكيت لك حكاية ؟ »

قال الطفل : « سأنام اذا حكيت لي حكاية » .

قال الرجل : « في يوم من الايام القديمة هربت بنت من

بيت اهلها ، فطاردهـا اخوهـا حتى عثر عليهـا فارغمها على الذهاب معه الى بستان ، وهناك ذبحهـا وفصل راسها عـن جسمهـا » .

فاستل اكرم سكينه ، وطعن بها فتاةجميلة الوجـه ، سوداء الشعر ، فصاحت الفتاة : « قتلتني » .

« ترك الاخ جسم اخته في البستان واخذ راسها معه وعلقه على حائط الغرفة التي ينام فيهـا وكان في كل ليلـة يقول للراس قبل ان ينام : « ليلتك سعيدة يا اختـي » . فيقول له راس الاخت : « وليلتك سعيدة يا اخي . نم باكرا كي تفيق في الصباح قادرا على العمل » .

وساد الصمت قليـلا ثم قال الرجل متسائلا : « هل عرفت مغزى هذه الحكايـة ؟ » .

قال الطفل : « مغزاهـا ان النوم نافع للجسم » .

قال الرجل :« اذن هيا نم ».

ونام الطفل ، ونام اكرم . وعندمااستفاق كانت شمس الصباح تغمره بنورها الاتي من نافذة مفتوحة ، فحملق اكرم الى النافذة مندهشا ، واتاه ضجيج الشـارع كصوت اليف يناديـه بحنان ، فترك سريره وهو يصفـر لحنا مرحا ، وارتدى ثيابه بسرعة ، وغادر الغرفة ، وسار في الدهليـز الموصل الى ردهـة الفندق ، وهناك الفى العجـوز مـا زال قابعا خلف مكتبه الخشبي . وحين اراد اكـرم ان يدفـع اجر مبيته ، قال له العجـوز وهو يبتسم بهزء : « انسيت ؟ انـت دفعت الاجر البارحـة » .

قال اكرم : « غريب ! لا اذكر اني دفعت اي اجر » .

قال العجوز : « ذاكرتك ضعيفة بالتأكيد » .

ثم اضاف : « هل ستترك فندقنا ؟» .

قال اكرم : « انا مضطر الى السفر اليوم » .

وغادر اكرم الفندق ، وسار بخطى واهنة متعثرة وكانها الخطوات الاولى لطفل ، وكان بعـد كل خطوة يزداد ثقـة بانه عائد الى الفندق حالمـا يقبل الليـل .

النمور في اليوم العاشر

رحلت الغابات بعيدا عن النمر السجين في قفص ، ولكنه لم يستطع نسيانها ، وحدق غاضبا الى رجال يتحلقون حول قفصه واعينهم تتأمله بفضول ودونما خوف ، وكان احدهم يتكلم بصوت هادىء ذي نبرة آمرة : « اذا اردتم حقا ان تتعلموا مهنتي ، مهنة الترويض ، عليكم الا تنسوا في اي لحظة ان معدة خصمكم هدفكم الاول ، وسترون انها مهنة صعبة وسهلة في آن واحد . انظروا الان الى هذا النمر . انه نمر شرس متعجرف، شديد الفخر بحريته وقوته وبطشه، ولكنه سيتغير ، ويصبح وديعا ولطيفا ومطيعا كطفل صغير ، فراقبوا ما سيجري بين من يملك الطعام وبين لا يملكه ، وتعلموا » .

فبادر الرجال الى القول انهم سيكونون التلاميذ المخلصين لمهنة الترويض ، فابتسم المروض مبتهجا ، ثم خاطب النمر متسائلا بلهجة ساخرة : « كيف حال ضيفنا العزيز ؟» .

قال النمر : « احضر لي ما آكله فقد حان وقت طعامي» .

فقال المروض بدهشة مصطنعة : « اتأمرني وانت سجيني ؟ يا لك من نمر مضحك ! عليك ان تدرك اني الوحيد الذي يحق له هنا اصدار الاوامر » .

قال النمر : « لا احد يأمر النمور » .

قال المروض : « ولكنك الان لست نمرا . انت في الغابات نمر ، اما وقد صرت في القفص فانت الان مجرد عبد تمتثل للاوامر وتفعل ما اشاء » .

قال النمر بنزق : « لن اكون عبدا لاحد » .

قال المروض : « انت مرغم على اطاعتي لاني انا الذي املك الطعام » .

قال النمر : « لا اريد طعامك » .

قال المروض : « اذن جع كما تشاء ، فلن ارغمك على فعل ما لا ترغب فيه » .

واضاف مخاطبا تلاميذه : « سترون كيف سيتبدل فالرأس المرفوع لا يشبع معدة جائعة » .

وجاع النمر ، وتذكر بأسى ايام كان ينطلق كريح دون قيود مطاردا فرائسه .

وفي اليوم الثاني ، احاط المروض وتلاميذه بقفص النمر ، وقال المروض :« الست جائعا ؟ انت بالتأكيد جائع جوعا يعذب ويؤلم . قل انك جائع فتحصل على ما تبغي من اللحم » .

ظل النمر ساكتا ، فقال المروض له : « افعل ما اقول ولا تكن احمق . اعترف بانك جائع فتشبع فورا » .

قال النمر : « انا جائع » .

فضحك المروض وقال لتلاميذه : « ها هو ذا قد سقط في فخ لن ينجو منه ».

واصدر اوامره ، فظفر النمر بلحم كثير .

وفي اليوم الثالث ، قال المروض للنمر : « اذا اردت اليوم ان تنال طعامـا ، نفذ ما سأطلب منك » .

قال النمر : « لن اطيعك » .

قال المروض : « لا تكن متسرعا فطلبي بسيط جدا . انت الان تحوص في قفصك ، وحين اقول لك : قف ، فعليك ان تقف » .

قال النمر لنفسه : « انـه فعلا طلب تافه ولا يستحق ان اكون عنيدا واجوع » .

وصاح المروض بلهجة قاسية آمرة : « قف » .

فتجمد النمر تـوا ، وقـال المـروض بصوت مرح : « أحسنت » .

فسرّ النمر ، واكل بنهم بينما كان المروض يقـــول لتلاميذه « سيصبح بعد ايام نمرا من ورق » .

وفي اليوم الرابع ، قال النمر للمروض :« انـا جائـع فاطلب منـي ان اقف » .

فقال المروض لتلاميذه : « هاهو قد بدأ يحب اوامري »

ثم تابع موجها كلامه الى النمر : « لن تأكل اليوم الا اذا قلدت مواء القطط » .

فكظم النمر غيظه ، وقال لنفسـه : « سأتسلى اذا قلدت مواء القطط » .

وقلد مواء القطط فعبس المروض، وقـــال باستنكار : « تقليدك فاشل . هل تعد الزمجرة مواء » .

فقلد النمر ثانية مواء القطط ، ولكن المروض ظل متجهم الوجه ، وقال بازدراء : « اسكت اسكت . تقليـدك مـا زال

فاشلا . سأتركك اليوم تتدرب على مواء القطط ، وغـدا سأمتحنك فاذا نجحت اكلت ، اما اذا لم تنجح فلن تأكل ».

وابتعد المروض عن قفص النمر وهـو يمشي بخطـى متباطئة ، وتبعه تلاميذه وهم يتهامسون متضاحكين . ونادى النمر الغابات بضراعة ، ولكنها كانت نائية .

وفي اليوم الخامس ، قال المروض للنمر : «هيا ، اذا قلدت مواء القطط بنجاح نلت قطعة كبيرة مـن اللحـــم الطـازج » .

قلد النمر مواء القطط ، فصفق المروض ، وقال بغبطة: « عظيم انت .. تموء كقط في شباط » .

ورمى اليه بقطعة كبيرة من اللحم .

وفي اليوم السادس ، ما ان اقترب المروض من النمـر حتى سارع النمر الى تقليد مواء القطط . ولكن المروض ظل واجما مقطب الجبين ، فقال النمر « ها انا قد قلدت مـواء القطط » .

قال المروض : « قلد نهيق الحمار » .

قال النمر بإستياء : « انا النمـر الذي تخشاه حيوانات الغابات ، اقلـد الحمار ؟ ساموت ولن انفذ طلبك » .

فابتعد المروض عن قفص النمر دون ان يتفوه بكلمة .

وفي اليوم السابع ، اقبل المروض نحو قفص النمـــر باسم الوجه وديعا ، وقال للنمر : « الا تريد ان تأكل ؟ »

قال النمر :« اريـد ان آكل » .

قال المروض « اللحم الذي ستأكله له ثمن ، انهـــق كالحمار تحصل علـى الطعام » .

فحاول النمر ان يتذكر الغابات ، فاخفق ، واندفع ينهق

مفمض العينين ، فقال المروض : « نهيقـــك ليس ناجحـا ، ولكنني سأعطيك قطعة من اللحم اشفاقا عليك » .

وفي اليوم الثامن ، قال المروض للنمر : « سألقـــي مطلع خطبة ، وحين سأنتهي صفق اعجابا » .

قال النمر : « سأصفق » .

فابتدأ المروض القاء خطبته ، فقال : « ايها المواطنون . سبق لنـا في مناسبات عديدة ان اوضحنا موقفنا من كـل القضايـا المصيرية ، وهذا الموقف الحازم الصريح لن يتبدل مهمـا تآمرت القوى المعادية ، وبالايمـان سننتصر » .

قال النمر : « لم افهم ما قلت » .

قال المروض : « عليك ان تعجب بكل ما اقول وان تصفق اعجابـا بـه » .

قال النمر: « سامحني . انا جاهل امي ، وكلامـــك رائع وسأصفق كما تبغي » .

وصفق النمر ، فقال المروض :« انـا لا احب النفاق والمنافقين ، ستحرم اليوم من الطعام عقابا لك » .

وفي اليوم التاسع ، جاء المروض حاملا حزمة مـــن الحشائش والقى بها للنمر وقال : « كل » .

قال النمر : « ما هذا ؟ انا من آكلي اللحوم » .

قال المروض : « منذ اليوم لن تأكل سوى الحشائش » .

ولما اشتد جوع النمر ، حاول ان يأكـل الحشائش ، فصدمه طعمها ، وابتعـد عنها مشمئزا ، ولكنه عاد اليهـا ثانية ، وابتدأ يستسيغ طعمها رويدا رويدا .

وفي اليوم العاشر ، اختفى المروض وتلاميذه والنمـر والقفص ، فصار النمر مواطنا ، والقفص مدينة .

ما حدث في المدينة التي كانت نائمة

١ ـ المجنون

لما ترامى الى الملك بأن عالما شهيرا يدعـى الحسن بن الهيثم يحيا في مملكته ، بادر الى استدعائه ، وكلفه بالاشراف على مدافىء قصره ، ومنحه راتبا شهريا سخيا وهو يقول : « البلاد التي لا تقدر علماءها محكوم عليها بالبقاء في ظـلام الجل وربقته » .

فكتب المؤرخون توا ما قاله الملك بمداد من ذهب .

ثم جاء يوم تحلق فيه عدد من طلاب العلم حول الحسن ابن الهيثم ، ورجاه واحد منهم ان ينبئهم بمـا يستحق أن يضحي الانسان بحياته في سبيله .

فقال الحسن بن الهيثم دونما تردد : « لا شيء يستحق أن يضحي المرء بحياته في سبيله سوى العلم والحق » .

ولما علم الملك بما قاله الحسن بن الهيثم ، غضب وقال : « أهكذا يتكلم من غمرناه بفضلنا ؟! » .

ثم اضاف متسائلا بنزق : « والملك ؟ الا يستحـق ان يضحي الناس بأرواحهم في سبيله ؟! » .

وصمم الملك على اهـــلاك الحسن بن الهيثم ، ولكنه كظم غيظه ، واخفى ما ينوي ، وآثر انتظـــار حلول الوقت الملائم .

وتنبه الحسن بن الهيثم الى الخطر الـــذي يهدده ، فسارع الى المثول بين يدي الملك ، وقال له : « لدي يا مولاي مفاجأة عظيمة ! » .

قال الملك بحبور مصطنع : « مفاجأة ! انا احب المفاجآت، فهيـا تكلم عنهـا » .

قال الحسن بن الهيثم : « لقد اخترعت آلة لا مثيل لهـــا » .

قال الملك بهزء خفي : « وما هي تلك الآلة.. الغريبة.. العجيبة ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « انها فعلا آلة غريبة عجيبة . اذا وضعت فيها جملا تحول الى طير من معدن يطير أفضل من اي طير ، ولا يقارن ببساط الريح .. واذا وضعت فيها الرماح والسيوف تحولت الى دبابات وقنابل ، واذا ... » .

فقاطعه الملك قائلا : « وما هي الدبابات والقنابل ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « انها آلات تهلك الاعداء وتدمر قلاعهـم » .

قال الملك بصوت ساخر : « وماذا تستطيع آلتك ان تفعل ايضا ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « اذا وضـع فيها حصـــان تحول الى سيارة » .

قال الملك : « سيارة ؟! ما هي السيارة ؟ » .

قال الحسن بن الهيثم : « انها عربة مـن معدن تمشي

وحدها على اربعة دواليب من مطاط دون أن يجرها احد » .

فقهقه الملك بمرح ، وقال لاعوانه وهو يشير بسبابته الى الحسن بن الهيثم : « جنّ المسكين جنونا لا شفاء منه » .

ثم تجهم وجه الملك ، وتكلم بصـوت صارم ، فعـزل الحسن بن الهيثم من منصبه ، وأمر بحجزه في بيتـه حتى المـــوت .

ونفذ الامر الملكي ، وبقي الحسن بن الهيثم حبيس بيته طوال سنين عديدة . وحين توفي الملك ، عـــاد الحسن بن الهيثم حرا ، فسرّ الناس ولكنهم فوجئوا بأنه ما زال يتكلم بحماسة عن آلته الغريبة العجيبة ، فهزوا رؤوسهم آسفين.

٢ ــ الهرب

استسلم الرجل المصنوع من ورق عتيق لمخالب النمر القادم من الادغال المظلمة ، ثم نادى الكلمات بصوت متهدج متوسل ، وقال لها : « اعطيني خبزا » .

فأجابت الكلمات بأنها لا تملك خبزا ، عندئذ طلب مـن النجوم الاختباء ، وغادر البيت وهو يحمل حقيبة مـلأى بالكتب ، وانطلق الى احدى الاسواق ، وهنـاك باع الكتب ، واشترى بثمنها خبزا وحبوبا منومة وقرنفلتين ، ثم عاد الى البيت بخطى مرحة ، ووقف امام المرآة ، وحدق اليها بفضول ولهفة ، فأبصر رجلا ملطخا بالدماء ، والفى نفسه يخضـــع رويدا رويدا لصوت انبثق من شرايينه ، وحلق في سمـاء الغرفة بجناحين أسودين ، فأحنى رأسه بذل وابتلع الحبوب المنومة وهو يرمق الخبز والقرنفلتين بنظرة هزء وانتصار .

فصاحت احـــدى القرنفلتين : « ماذا فعلت ؟ صرت قاتـــلا » .

قال الرجل : « اخرسي والا رميت بك الى مزبلة » .

قالت القرنفلة : « تأدب . أنا لست قرنفلة » .

قال الرجل متسائلا بلهجة هازئة : « من أنت ؟! » .

قالت القرنفلة : « أنا شرطي متنكر » .

قال الرجل : « ساصدق ما تقولين يوم أجن » .

قالت القرنفلة : « كن مؤدبا والا سلخت جلدك وحشوته قشا كما فعل أجدادي بأجدادك » .

فأغمض الرجل عينيه ، واجتاحه الاسى ، واستســلم للحبوب المنومة التي حملته الى قاع سحيق مظلم ، وهنــاك صنع سبع ذبابات .

قالت الذبابة الاولى : « مت اليوم ما دمت ستمــوت غـــدا » .

قالت الذبابة الثانية : « دموعك وحدها ستبلل قبرك »

قالت الذبابة الثالثة : « سفرك الى مملكة النجوم يحتاج الى جواز سفر لن تناله » .

قالت الذبابة الرابعة : « اذا هربت فمن قبر الى قبر ستهرب » .

قالت الذبابة الخامسة : « سيكون كفنك مـــن ورق اصفـــر » .

قالت الذبابة السادسة : « لن تمشـــي في جنازتك سوى الكتب » .

قالت الذبابة السابعة : « اليوم يوم هلاكك » .

عندئذ رفع الرجل يدا غاضبة ، وأهـــوى بها عـــلى

الذبابات السبع ، فسحقها ، ثم عمل طوال ستة أيام ليصير في اليوم السابع الذبابة الثامنة ، فطار مبتهجا ، ودخل الى غرفة في مدرسة ، وارتجف نشوانا وهو ينصت لاصـــوات الاطفال الذين كانوا يقرأون بحب كلمات مكتوبة على لـــوح أسود ، ولكنه ما أن حط على سطح طاولة حتى اصطاده ولد صغير بحركة خاطفة من يده ، وسحقه توا بأصابعه ، فـلم يصرخ متألما انما تنهد بارتياح .

٣ ــ شجرة الاقمار الحمراء

اقتحم رجال غرباء حقلا تغطي أشجار اليرتقال أرضـــه الخضراء ، واطلقوا النار على المرأة ، وابعدوا طفلها عن ثدييها الطافحين بالحليب الحار ، ثم نقلوه الـــى غرفة التحقيـــق المزدحمة بالخوذ الحديدية .

بكى الطفل ، فقال المحقق لرجل يجلس وراء طـــاولة تكدس على سطحها ورق ابيض كثير ، وأصابعه تمسك القلم بحركة من يشهر مدية : « سجل انه بكى نادما لانه عربي » .

ثم قال للطفل : « هيا تكلم ولا تحاول الكذب او الانكار فمن المؤكد انك عندما تكبر ستحمل السلاح وتقتلنا لتمتلك حقلنا الذي كان حقلك » .

عندئذ صاحت الخوذ الحديدية : « الموت للقاتل » .

فقال المحقق للطفل : « حكمت عليك المحكمة بالموت » .

وبادرت الخوذ الحديدية الى حفر حفرة في الحقـــل الذي تغطي أشجار البرتقال أرضه الخضراء ، ووضعت فيها الطفل ، وأهالت فوقه ترابا وحجارة ، فصاح : « ماما » .

فهرعت اليه الدماء النازفة من جسد أمه ..

ولما اقبل الربيع صار الطفل شجرة برتقال ، وكانت ثمارها اقمارا حمراء تحرق ليلا نائي الفجر .

٤ ـ لا ..

كان الرجل الهرم يجلس في باحة البيت على كرسي خشبي قصير القوائم مسندا ظهره الى حائط ابيض اللون.

وكان مغمض العينين مغمورا بضياء شمس دافئة ، يتخيل انه قد صار ملكا تنحني له الرؤوس ، وترتجف الارض لحظة بغضب . ويتخيل قطا يسعل ويقول : « سأموت لاني ادخن السجائر » . ويتخيل طفلا يحترق ويستنجد صارخا : « ماما » ، فلا تأبه أمه له وتتابع عنايتها بزينتها وهي واقفة أمام مرآة كبيرة .

وفتح الهرم عينيه لحظة سمع باب البيت يفتح ، وابصر ابناءه السبعة يدخلون حاملين خشبا ومنشارا ومطارق ، فقال لهم متسائلا : « ماذا تحملون ؟ » .

فلم يجب احد بكلمة ، ووضعوا ما يحملون على أرضية باحة البيت ، وابتدأوا يعملون واجمين .

سألهم الهرم : « ماذا تصنعون ؟ » .

فقوبل سؤاله بالصمت ، فتابع الكلام قائلا : « لا بد انكم تصنعون صندوقا » .

وضحك ساخرا ثم قال : « ماذا تريدون أن تفعلوا بالصندوق ؟ هل ستضعون فيه ثيابكم المهترئة ؟ ».

لم يجب الابناء ، وظلوا يعملون بسرعة .

قال الهرم : « عرفت ما تصنعون . أنتم تصنعون خزانة لحفظ الطعام . ما الفائدة من تلك الخزانة ما دامت الفئران قد كفت منذ سنين عن القدوم الى بيتنا لعلمها انها لن تجد ما تأكل ؟! » .

ظل الابناء السبعة صامتين ، يعملون بوجوه متجهمة ، فقال لهم الهرم بصوت حانق : « اللعنة عليكم ! ما هذا السلوك ؟ ايخاطبكم ابوكم فلا تجيبون ؟ على الابناء احترام الآباء . يا ضياع تعبي في تربيتكم . » .

وعاد الهرم الى اغماض عينيه ، وتخيل رجالا سكارى يحتضرون على الارصفة ، وينتحبون ويقولون : « ما ابشع حياتنا وختامها ! لم نصل . لم نصم . لم نحج . لم ندفع زكاة » .

فيقول لهم صوت خشن أبح : « عشتم كالكلاب فموتوا كالكلاب » .

وساد في باحة البيت صمت مباغت ، ففتح الهرم عينيه ، فاذا أبناؤه قد انتهوا من عملهم ، فصاح مدهوشا : « ماذا صنعتم ؟ صنعتم تابوتا ؟! من منكم ينوي أن يموت ؟ »

قال واحد من الاولاد : « التابوت لك » .

قال الهرم : « يا لك من ابن سمج ! تتكلم دائما كلام مجانين . التابوت للموتى اما أنا فما زلت حيا ومستعدا للزواج من بنت عمرها خمس عشرة سنة » .

ودنا الابناء السبعة من الهرم بخطى بطيئة ووجوه مقطبة ، فقال بذعر : « ما بكم ؟ اجننتم ؟ ماذا تريدون أن تفعلوا ؟ » .

وحاول المقاومة عندما حمـــله أبناؤه ووضعوه فـي التابوت ، ولكن ايديهم القوية سمرته في قـــاع التابوت ، فانتحب وابتلت بالدموع لحيته الطويلة البيضاء ووجهـــه المتجعد ، وقال : « أنتم مجانين » .

قال واحد من الابناء بصوت هـــادىء : « آن لك أن تمـوت » .

صرخ الهرم : « هل تعرفون ما تفعلون ؟ أنتم تقتـلون اباكم ؟ ماذا فعلت حتى اعامل هذه المعاملة ؟ » .

قال الابن الاول : « انت علمتنا كيف نحني رؤوسنا » .

قال الابن الثاني : « وعلمتنا تقبيل اليد التي تصفعنا » .

قال الابن الثالث : « يخيفنا ثوب امرأة » .

قال الابن الرابع : « ونصبح جوارب عتيقة حين نشاهد ركبة امرأة ! » .

قال الابن الخامس : « لقد علمتنا النوم أيام العاصفة » .

قال الابن السادس : « لا مـاض لنا ولا حـــاضر ولا مستقبل » .

قال الابن السابع : « ونحن لا نجرؤ على النظـر الـى السمـاء » .

فصاح الهرم : « ولكني لم أمت بعد » .

فلم يكترث الابناء بصرخته ، ودقوا المسامير في غطاء التابوت ، ثم أحرقوا كل ما في البيت من قماش يصلـح لان يكون راية بيضاء ، ثم حملوا التابوت الى المقبرة .

السهرة

رحبت حارة السعدي برحيل شمس النهار ، فالليلة يتصالح رجلان من أشرس رجالها ، فأبو شكور وأبـو كاسم قادران على أن يقتلا ويسيرا هادئين في جنازة القتيل .

ولما عمّ الظلام تجمع عدد كبير من رجال حارة السعدي في أحد البيوت . وتكلم رجال كبار في السن كلاما منمقا رصينا يحضّ على تناسي الاحقاد . ثم تصافح أبو شكـــور وأبو كاسم وتعانقا وقبل كل منهما الآخر وسط التصفيـق والتهليل ، وجلسا متجاورين واحتسيا كؤوسا من العـرق وهما يتبادلان كلمات المجاملة . وعندما سكرا بدا لهما كـل ما كان بينهما من خلاف لا اكثر من طيش أولاد .

ووضع أبو كاسم يده على كتف أبو شكور بحركة ودية، وقال له بصوت ذي نبرة صادقة : « والله يا أبو شكـــور أنت سيد الرجال » .

فرد أبو شكور قائلا باستنكار وخجل : « انا ؟! أعـوذ بالله ! من أكون اذا قورنت بالرجال ؟ » .

قال أبو كاسم : « ولو ؟! انت رجل حارتنا . كلنـــا نذكر ما فعلت يوم هاجم حارتنا رجال حارة مرجان » .

فأشار ابو شكور بيده الى الرجال في الغرفة ، وقال : « ما فعلته يستطيع اي رجل ان يفعـــله . أما اذا قورنت بالرجال الرجال فمن أكون ؟ مجرد رضيع . أتذكرون ابي ؟ »

فتصاعدت من حوله أصوات تردد :

« رحمة الله عليه » .

« أسكنه الله فسيح جنانه » .

« الفاتحة .. » .

قال ابو شكور : « المرحوم كان رجلا لا يشبه غيره من الرجال ولا يمكن نسيانه . كـــان يحب السكر والغنـــاء والنســـاء » .

فصاح واحد من الرجال بصوت ثمل : « وانا ايضا والله أحب النساء » .

ضحك الرجال بمرح ، وتعالت صيحات يقول اصحابها انهم جميعا يحبون النساء مثل المرحوم .

قال ابو شكور : « كان المرحوم كما تذكرون يحب ايضا المشاجرات . يضرب ويختفي ولا يمسكه شرطي » .

فأيده الرجال مرددين كلمات الاعجاب بذلك الرجل ، ثم تحادثوا عن رجال ماتوا ، وكانوا قادرين في آن واحد أن يبكوا كأطفال وان يقتلوا بهدوء من يشرب ماء .

واستمرت السهرة صاخبة مرحة حتى نفد العرق والطعام، وحينئذ تفرق الساهرون متبادلين التحيات .

وغادر ابو شكور البيت ، ومشى في حارته بخطـوات

مترنحة متثاقلة دون ان يستطيع نسيان أبيه . وتذكر يوم كان صبيا صغيرا ورجع الى البيت باكيا لان أولاد الحـارة اعتدوا عليه ، فضربه أبوه ضربا مؤلما ، وقال له : « البكـــاء للنساء لا للرجال » .

ولما شج اول مرة رأس ولد يكبره في السن ، كافأه أبوه بشراء حذاء جديد له .

واستمر ابو شكور في سيره المتمهل الثمل ، وتوقف لحظة شاهد رجلا يحمل عودا ويمشي مترنحـا ، فاعترض طريقه قائلا له بلهجة مهددة آمرة : « قف .. ولا .. » .

قال حامل العود بصـوت خائف : « ها انذا وقفت . تأمر ابو شكور » .

قال ابو شكور متسائلا بجفاء : « أنت تعرفني ؟! انـا لا اعرفك فكيف تعرفني ؟! » .

قال حامل العود : « الم تعرفني ؟ غنيت في سهـرات كثيرة كنت فيها » .

فحملق أبو شكور الى حامل العود ثم قال : « تذكرتك. انت .. انت .. اف ! نسيت اسمك » .

قال حامل العود : « انا ابو سمير » .

قال ابو شكور : « الآن تذكرتك .. انت فعـــلا ابـو سميـر » .

— « نعم نعم .. انا ابو سمير » .

— « اين كنت ؟ » .

— « في سهرة » .

— « كيف كانت ؟ » .

ـ « سهرة زفت . الاكل قليـــل والعرق مغشوش والشباب لا يعجبهم العجب » .

ـ « والى أين ذاهب الآن ؟ » .

ـ « الى البيت طبعا » .

وارتفع في تلك اللحظة صوت المؤذن من مئذنة قريبة داعيا الى صلاة الفجر ، فنظر أبو شكور الى السماء ، وقال لابو سمير : « مؤذن جاهل . يؤذن آذان الفجر بدلا من آذان العشاء . الله يصلحنا » .

قال أبو سمير بصوت متملق : « آمين » .

فقطب أبو شكور جبينه مفكرا ، وحدق الى أبو سمير ثم قال له : « هيا اتبعني .. الى أين ؟ لا تسأل.. والا ... »

قال أبو سمير : « امرك أبو شكور امرك » .

وسلك ابو شكور زقاقا ضيقا سائرا بخطى قصيرة سريعة ، وتبعه أبو سمير مهرولا ، حتى بلغا باب مقبرة الحارة ، وعندئذ صاح أبو شكور وهو يهم بالدخول الى المقبرة : « الحقني » .

قال أبو سمير : « ماذا تريد أن تفعل بي ؟ أنا رجل مسكين لا اؤذي نملة » .

فالتفت اليه أبو شكور قائلا بشراسة : « الحقني والا عدت اليك . انت تعرفني وتعرف ماذا افعل بمن يضايقني »

فبادر أبو سمير الى دخول المقبرة ، وتبع أبو شكور متعثر الخطى مرتجفا ، يبسمل بصوت مرتفع .

ومشى أبو شكور وسط القبور البيض ، ثم توقف عند واحد منها وجلس عليه ، واشار الى قبر قبالته ، وقال لابو سمير : « اجلس هنا » .

فأطاعه أبو سمير ، وحاول الكلام ، ولكن ابو شكور قال له : « اخرس » .

وأشار بسبابته الى قبر بجواره ، وقال : هذا قبر ابي، يرحمه الله .. هيا نقرأ الفاتحة ونهبها لروحه » .

وبسط راحتيه وراح يتلو الفاتحة ، بينما كان ابو سمير يضع العود على الارض ، ثم يرقع راحتيه نحو وجهه، ويحاول تلاوة الفاتحة ، ولكنه يكتشف انه نسي كلماتها ، فيكتفي بتحريك شفتيه متصنعا الخشوع .

ولما انتهى أبو شكور من تلاوة الفاتحة ، لمس وجهه براحتيه ، فسارع أبو سمير الى تقليده .

ومسح أبو شكور وجهه بمنديل من قماش ثم تمخط فيه ووضعه في جيبه ، وقال وهو يشير الى قبر ابيه : « الوالد كان يحب الغناء والطرب . وأنا أريد الليلة أن يسمع ما حرم منه ويطرب قليلا . هيا اعزف على عودك و ... » .

فظل أبو سمير متجمدا ، فقال أبو شكور بغضب : « ألم تسمع ما قلت ؟! هيا تحرك والا كسرت عودك على راسك » .

قال أبو سمير وهو يرتعد : « أبو شكور .. دخيلك .. أنا والله ... » .

فقاطعه أبو شكور قائلا بنزق : « انا والله سأدفنك الليلة في قبر اذا لم تطعني وتفعل كل ما أريد » .

قال أبو سمير مداريا : « تأمر أبو شكور .. لا تزعل.. أنا في خدمتك .. لا حول ولا قوة الا بالله » .

قال أبو شكور : « هيا اذن اسمع الوالد قليلا من التقاسيم » .

فتناول ابو سمير عوده ، واحتضنه ، وامسكت اصابع يده اليمنى بالريشة ، وضرب بهـا على الاوتار عدة ضربات ، ثم تجمدت يده ، فقال ابو شكور : « لماذا توقفت ؟ » .

قال ابو سمير : « تريد الحقيقة ؟! أنا خائف .. ويدي لا أسيطر عليهـا وترتجف غصبا عني » .

« ـ خائف ؟! الرجال لا يخافون وانت رجل . عيب ان تخاف . اتخاف وانت مع ابو شكور . لا عاش الخوف » .

واخرج ابو شكور من جيبه زجاجة مليئة بالعـرق الممزوج بالماء ، ونزع سدادتها ، وقدم الزجاجـة الى ابـو سمير قائـلا : « خذ .. اشرب .. هذا عرق اصلـي سيجعلك لا تخشى عفاريت الارض كلها » .

فتناول ابو سمير الزجاجـة ، ورفعهـا الـى فمه ، وجرع منهـا جرعة كبيرة ثم اعادهـا الى ابو شكور الـذي مسح فمهـا براحته ثم شرب منها ، وقال : « هيـا ابـدأ بالتقاسيم واسمع الوالد ما يفرح قلبه ، واجعله في قبـره يـرضـى عني ويقول : آه » .

وابتدأ ابو سمير بالعزف على العود ، فهـز ابو شكور راسه يمنة ويسرة معجبا ، وقال : « آه .. تسلم يـدك .. أكمـل » .

فسر ابو سمير سرورا خفيا جعـله يتناسى قليـلا خوفه واضطرابه ، وبات يعزف بثقـة اكثر ، فصاح ابـو شكور : « يا عيني عليك يا .. الاسم الكريم ؟! » .

« ـ ابو سمير » .

« ـ لعنة الله على النسيان . ابو سمير .. ما رايـك فـي مـوال ؟ »

« ـ تأمر ابو شكور » .

وعزف ابو سمير قليلا على العود ثم تعالى صوتـه اجش ، وكان في البداية مرتبكا متهدجا ثـم مـا لبث ان استعـاد شيئا فشيئا هدوءه :

ياليلي ياليلي ياليلـي يـاعيني

فهتف ابو شكور بصوت ممطوط : « آه .. آه .. » .

ومد يده بزجاجة العرق الى ابو سمير الـذي شرب منهـا بنهـم ، وارجعهـا الى ابو شكور وهو يقول : « تشكر يا ابـو شكور تشكر » .

ضحك ابو شكور ، وقال : « صحـة ! هـكذا يشرب الرجـال » .

وعاود ابو سمير غناء موالـه :

يللي انكتب على الجبين لازم تشوفو العين

صاح ابو شكور : « صحيح والله صحيح . تابع ابو سميـر تابـع » .

واحس ابو سمير بصدق اعجاب ابو شكور ، فانتشى وتلاشى خوفه ، واستمر في الغناء بصوت خشن .

وعندما انتهى الموال ، صفق ابو شكور ، وقـال : « الله الله » بلبـل انت يا ابو سمير » .

ضحك ابو سمير بغبطـة ، وقال : « بلبل لكنـه بـلا جناحين ويوشك ان يموت » .

فدفع ابو شكور زجاجة العرق الى ابو سمير ، وهـو يقول : « اشرب . كلنا سنموت . دنيا فانية . نحن اليـوم خارج القبر وغدا من يعلم ما يحل بنـا ؟! قد نصيـر فـي داخله . اشرب اشرب . حياة بنت كلب ! » .

ورفع ابو سمير زجاجة العرق الى اعلى بحركة قوية ، وقال : « بصحة ابو شكور شيخ الرجال » .

قال ابو شكور :« تسلم يا ابو سمير تسلم . متزوج ؟ »

« ــ لا والله . . وحيد . لا زوجة ولا ولد . لا ام ولا اب» .

« ــ ولماذا لا تتزوج ؟! »

« ــ من المجنونة التي تقبل بالزواج من واحد مثلي ؟! الشحاذ افضل مني ، ولم يبق في راسي شعرة واحدة سوداء » .

فضحك ابو شكور ، وقال : « المهم يا ابو سمير ليس الشعر الاسود . انت سيد العارفين : النساء ملعونات ، وتعرف طبعا ما يرغبن فيه » .

هز ابو سمير راسه وقال : « اعرف اعرف . ولكن يا ابو شكور العين بصيرة واليد قصيرة » .

وضحك الاثنان ببهجة ثم قال ابو شكور : « اخي ابو سمير . . لا تكن بخيلا . هيا اسمعنا . . » .

ففكر ابو سمير لحظات بينما اصابعه تداعب اوتار العود ثم قال بادي السرور : « وجدتها » .

وسعل ، ثم انساب صوته خافتا ، يرافقه العود :

سبع آهات ممزوجه بلب الكلام
الاوله آه من فعلك معي يا شام

فعقد ابو شكور ذراعيه على صدره ، وانصت عابس الوجه .

والثانيه يا حيف ضيعت أيامي

فصاح ابو شكور مقاطعا بصوت منتش : « يا حيف يا ابو سمير يا حيف . . » .

شبه السحابه الريح يذريها
والثانيه يا حيف ضيعت ايامي
ودربي كحد السيف يا شام قدامي

وهز ابو شكور راسه ،وقد استولى عليه الاكتئاب ، وتجرع من زجاجات العرق جرعات متلاحقة ، بينما كان ابو سمير يتابع الغناء :

يا خلجة المدبوح يا رعشة التلفان
مبني سفينة نوح شولو سبب داعي

وصاح ابو شكور : « آخ يا ابو سمير . . هل تريد ان تبكيني » .

فتوقف ابو سمير عن الغناء ، ومد يده نحو زجاجة العرق ، ولكن ابو شكور طوح بها بعيدا لترتطم بأحد القبور وتتحطم ، وقال : « فرغت » .

واخرج من جيبه زجاجة ثانية ، وقدمها الى ابو سمير بحركة متفاخرة قائلا : « المؤونة موجودة ولله الحمد . اشرب . لا شيء في الدنيا له قيمة . اشرب » .

فشرب ابو سمير من زجاجة العرق كمية كبيرة، ثم أعادها الى ابو شكور الذي قال : « والآن الا تسمعنا اغنية تفرح ، وتجعل القلب يرقص ؟ » .

قال ابو سمير بصوت متلجلج : « على عيني ابو شكور على عيني » .

وعزف العود لحنا مرحا ، وغنى ابو سمير بصوت ثمل :

هز التوته يا توات

توتك حلي يا توات

والتفت الى ابو شكور ، وقال له بلهجة معاتبة : « ما لك ساكتا ؟ هيا عن معي ابو شكور غن » .

هز التوتــه يا توات
توتك حلي يا توات

ورافقه ابو شكور في الغناء ، واتحد الصوتان ، وتعاليا مرحين ممطوطين .

وفجأة بلفت سمعهما صرخة غاضبة مستنكرة ، فالتفتا نحو مصدر الصرخة ، فأبصرا الحارس الليلي هارعا نحوهما.

وما ان دنا الحارس الليلي منهما وشاهد ابو شكور حتى قال بلهجة ودية : « صباح الخير عمي ابو شكور » .

قال أبو شكور مستغربــا : « صباح الخير ؟! لماذا ؟ طلعت الشمس ؟! » .

قال الحارس : « ستطلع بعد قليل » .

فقال ابو شكور للحارس وهو يشير الى احد القبور : « اجلس .. اجلس » .

قال الحارس معتذرا وحريصا على مراضاة ابو شكور : « قد تأتي دورية الشرطة في اية لحظة .. » .

فقاطعه ابو شكور قائلا : « لن يأتي احد .. واذا اتــت دورية الشرطة فماذا سيحدث ؟! » .

قال الحارس : « سيخرب بيتي » .

فضحك ابو شكور وقال : « أعرف بيتك ، وان خرب فستتخلص منه وتستريح » .

قال الحارس : « قد افصل من عملي » .

قال أبو شكور ساخرا : « انت مجنون حين تخشى ان تفقد عملا لا يشبعك لقمة الخبز » .

والتفت الى ابو سمير ، وقال له : « ما رايك يا أبــو سمير ؟ احك » .

قال ابو سمير : « كلامك يا ابو شكور جواهر » .

فقال أبو شكور للحارس بصوت آمر : « اقعد » .

فأطاع الحارس ، وجلس على واحد من القبور ، فقدم اليه أبو شكور زجاجة العرق قائلا : « اشرب » .

قال الحارس : « والله ... » .

قال أبو شكور : « اشرب ولا تخف مــن اي شيء .. لا من رؤسائك ولا من زوجتك .. اشرب ولا تهتم بشيء » .

فتناول الحارس زجاجة العرق ، وارتشف منهــا رشفة صغيرة ، فقال له ابو شكور بصوت محتج : « ما هذا ؟ الشرب بقدر المحبة . اشرب » .

فتجرع الحارس جرعة كبيرة .. عندئذ قال ابو شكور لابو سمير : « هيا يا أبو سمير .. اكمل » .

فعاود ابو سمير العزف على العود ، وغنى :

هز التــوته يا توات

قال أبو شكور للحارس : « هيا غن معنا . ساعة الفرح حين تأتي لا ترجع » .

وتعالى صوتا ابو سمير وابو شكور ، ثم انضم اليهما صوت الحارس مضطربا ، ولكنــه تخلص بعد قليل مــن اضطرابه ، لتصير الاصوات الثلاثة صوتا واحدا خشنا قويا مرحا يستقبل صباحا ذا شمس تشرق على أحياء واموات .

لا غيمة للاشجار
ولا اجنحة فوق الجبل

اعتقلوه ليلا لحظة كان يمزق صورة ملصقة على حائط، وكانت لرجل ملتح ، وديع الوجه ، صارم العينين .

واقتادوه سريعا الى قبو عتيق ، عفن الجدران ، مكتظ بالطاولات والكراسي ، وهناك تحلقوا حوله وجوها مقطبة ، واعينا ترمقه بسخرية وفضول .

سأله واحد من الرجال الاربعة : « ما اسمك ؟ » .

ـ « سهيل .. سهيل بدور » .

ـ « وعمرك ؟ » .

ـ « عشرون سنة » .

فقال الرجل لزملائه بدهشة : « انظروا .. انظروا اليه. انه أجمل من البنات » .

فمد رجل آخر يده ، ولمس وجه سهيل ، وقال باعجاب: « آخ ما انعم جلده ! » .

وقال رجل ثالث : « لحمه شديد الطراوة » .

فقال الرجل الرابع بلهجة هازئة : « العمل أولا يا رجال. انسيتم ان علينا التحقيق معه لا رسمه » .

قال الرجل الاول وهو يبتسم : « لن تخرب الدنيا اذا تأجل التحقيق معه حتى الصباح ، فساعة لقلبك وساعة لربك » .

وتدانت رؤوس الرجال الاربعة ، وتهامسوا ، ثم تضاحكوا بمرح وصخب ، واخبروا سهيلا بما يريدون ، فبوغت ، وتراجع مذعورا مستنكرا ، ولكنهم سارعوا الى تهديده باللجوء الى القوة اذا رفض، وانتصبوا امامه مشدودي القامات ، قساة ، واعينهم متحفزة فظة شرسة ، فتضاءل الهواء في رئتيه ، وفقد صوته ، ووهنت قواه ، وتحول الى جسد مرتعش وعينين ضارعتين ...

وغمره خجل عارم ، فأغمض عينيه وهو يعض بأسنانه على شفته السفلى ، ولم يفه بكلمة عندما سأله أحد الرجال بصوت لاهث متهدج : « لماذا مزقت الصورة ؟ » .

وقال رجل الصورة لمدن محنية الظهر : « الحياة الدنيا فانية لا خير فيها ، ولا تعطي الا الجوع والاتراح ، فالصبر الصبر يا فقراء ، فلكم وحدكم الجنة بعد الموت .. » .

وأبصر سهيل الارض حديقة شاسعة خضراء وأطفالا يركضون مرحين تحت سماء زرقاء ، وابصر الجائعين يهدمون القبور ويبنون فوقها بيوتا لهم وللشمس والهواء ، فاندفع دما غاضبا ، ومزق بأصابع نزقة صورة الرجل الملتحي الوديع الوجه الصارم العينين ، الملصقة على حائط ، فحاصره توا

أربعة رجال ، وحملته سيارتهم بعيدا عن أشجار الشوارع والليل ونجومه الدائمة الارتجاف .

وجلس الرجال الاربعة على الكراسي، يدخنون السجائر، وظل سهيل واقفا دونما حراك، محني الراس، يحملق في ارضية الغرفة الوسخة ، حتى طلبوا منه الجلوس على كرسي ، فأطاع ، وقدم له أحدهم سيجارة ، ثم أشعلها بعود ثقاب وهو يبتسم بود .

وتحدث الرجال الاربعة بأصوات متذمرة عن ارتفاع أسعار الخبز واللحم ، وبدوا لعيني سهيل وديعين متعبين يكبتون رغبة قوية في النوم ، ثم نهض أحدهم فجأة ، وغادر الغرفة ، وعاد حاملا بطانية ، وفرشها على أرضية الغرفة ، وطلب من سهيل التمدد عليها ، والتفت الى زملائه متسائلا بزهو : « اليست فكرتي عظيمة ؟ » .

فندت عنهم صيحات استحسان وترحيب .

واستلقى سهيل على البطانية ملصقا وجهه بصوفها الخشن ، وارتجف وهو يبصر الارض تغطيها مشانق تتدلى منها جثث عارية صغيرة وانتظر بلهفة وخوف ما سيحدث.

الابتسامة

أوقظ من نومه في الفجر ، واخرج من زنزانته ، واقتيد الى ساحة تنتصب فيها أوتاد خشبية متباعدة ، وأوثق الى احدها ، فقال بصوت خشن : « لست جبانا. لا أريد أن تعصب عيناي . أريد أن اشاهد ما يحدث » .

فلم يؤبه لقوله ، وعصبت عيناه بقطعة قماش أسود ، ثم سمع أحذية ثقيلة تضرب الارض بقوة ، فارتجف ، وركض الى البيت الذي ولدفيه ، ودخله مذعورا لاهثا ، وصاح : « أمي.. امي .. » .

فلم يجب أحد ، فقال لنفسه : لعلها نائمة !

واتجه الى الغرفة التي تنام أمه فيها ، فالفى بابها مفتوحا ، وأبصر أمه عارية تحت رجل غريب ، فشهق مرتعدا وحاول التراجع والاختفاء ، ولكنه أخفق وتجمد في مكانه .

وفجأة لمحته أمه ، فقالت له بصوت حاد مرتعش : « استح وكف عن الحملقة كأبله . هل تشاهد فيلما ؟! هيا

اذهب والعب في الحارة ولا ترجع الـــى البيت الا حيـــن انـــاديك » .

فغادر البيت ، وركض قاصدا الساحـــة التي تنتصب فيها أوتاد خشبية متباعدة ، فأوثق الى احدها ، وقال بصوت متوسل : « اريد الا تعصب عيناي ، اريد أن اشاهـــد كيف سأنتحر » .

فلم يؤبه له ، وعصبت عيناه بقطعة قماش اســـود ، ثم سمع صوتا صارما يصدر أمرا تلاه دوي رصاص اصطدم بخصمه وملأه ثقوبا دامية ، فابتسم ساخرا ، غير ان طلقـــة اخترقت سريعا رأسه ، ومحت الابتسامة .

ملخص ما جرى لمحمد المحمودي

كان محمد المحمودي رجلا هرما ، يعيش وحيدا فـــي بيت صغير ، فلا زوجة له ولا ولد ، ولم يكن لديه مـــا يفعله اثر احالته على التقاعد ، فما ان يقبل الصباح حتى يغـــادر البيت ، ويمشي في الشوارع وئيد الخطى ، ويتوقف لحظات ليشتري جريدته المفضلة ، ثم يستأنف مشيـــه المتباطـــىء متجها الى مقهى لا يفصله عن الشارع الصاخب الا حائط من زجاج . وحين يبلغه ، يدلف الى داخله ، ويقصد طـــاولة معينة تتيح له التفرج على الشارع ، ويجلس منتظرا دونمـــا كلام النرجيلة وفنجان قهوة دون سكر . ثم يخرج من جيبه نظارة يضعها على عينيه ، ويستغرق فـــي قراءة الجريدة ، مدخنا النرجيلة ، متطلعا بين الحين والحين الى الشـــارع بعينين ذاهلتين .

وكلما جاع ، ينهض بتثاقل واسف ، ويغادر المقهى الى مطعم قريب ، فياكل بملل ، ثم يرجع سريعا الى المقهى ليتابع قراءة الجريدة وتدخين النرجيلة واحتساء الشاي والقهوة

والتفرج على الشارع حتى يعم ظلام الليل ، فيترك وقتئذ المقهى ، ويذهب الى بيته ، ويخلع ثيابه ، ويستلقي على سريره العريض ، ويستسلم توا لنوم عميق .

واحيانا كان يشاهد امه اثناء نومه ، وكانت تؤنبه بقسوة لانه لم يتزوج ، وتعول مطالبة بطفل يقول لها : « يا جدتي اشتري لي بالونا » .

فيستيقظ من نومه مكتئبا وخجلا من رغبته في النحيب طويلا .

وفي احد الايام ، كان جالسا في المقهى كعادته ، يقرأ الجريدة ويدخن النرجيلة ، فاذا بأصابعه تفلت فجأة الجريدة ، وتندّ عنه شهقة ، ويتهاوى ارضا دون حراك ، فاستدعي على عجل الطبيب الذي قرر بثقة انه قد مات ، وعندئذ جاءت المعاول والرفوش تنفيذا لوصيته ، وحفرت حفرة تحت الطاولة التي اعتاد الجلوس اليها ، ثم حمل برفق وسجي في قاع الحفرة ، واهيل فوقه تراب كثير ، فلم يحنق او يتذمر ، انما ابتسم فرحا بخلاصه من المشي في الشوارع والذهاب الى البيت والمطعم ، وانصت بشغف الى احاديث رواد المقهى وقرقرة النراجيل وصيحات الجرسون ، ولكنه كان يشعر ليلا بالضجر والوحشة والخوف ، اذ يخوي المقهى ويقفل ابوابه .

واتى يوم اقتحم فيه المقهى عدد من رجال الشرطة ، واخرجوا محمد المحمودي من حفرته ، واقتادوه الى احد المخافر ، وهناك قال له رئيس المخفر بصوت صارم : « نمي الينا انك تنتقد اعمال الحكومة وتهزأ منها وتسبها وتزعم ان

كل قوانينها لا تخدم الا أصحاب البنايات والسيارات والبطون الكبيرة » .

فهتف محمد المحمودي مرتاعا مستنكرا : « انا اسب الحكومة ؟ اعوذ بالله ! انا لست ممن يشربون من النبع ثم يبصقون فيه . اسأل عني . كنت موظفا مثاليا ، وكنت أطيع الاوامر والقوانين وانفذها بدقة . اسأل عني . لم اسكر يوما ولم أتحرش بامراة ، ولم أؤذ أحدا ، وكنت ... » .

فقاطعه رئيس المخفر قائلا : « ولكن التقارير الواردة الينا بشأنك لا تكذب ، واصحابها موضع ثقة كاملة » .

ارتعد محمد المحمودي ، وقال بصوت متهدج : « اقسم بالله اني عشت حياتي كلها دون أن أتكلم يوما في السياسة، ولم اسب طوال عمري لا حكومة ولا حكاما » .

قال رئيس المخفر : « ها ها .. من فمك أدينك . انت قلت انك لم تسب الحكومة ولم تقل انك مدحتها ، افلا تستحق في رايك المديح ؟ » .

فحاول محمد المحمودي التكلم ولكن رئيس المخفر تابع قائلا : « وحتى آذا كان ما تقوله صادقا فهو امر غريب جدا لان الناس جميعا تشوهوا وصاروا حاقدين موتورين ، يسبون الحكومة والحكام متناسين وجوب اطاعة اولياء الامر، وان للسياسة اهلها » .

قال محمد المحمودي بصوت واهن : « هذا صحيح . الجميع يتحدثون في السياسة ولا يتركون مسؤولا في الدولة الا ويلصقون به أشنع الصفات ، أما انا ... » .

قال رئيس المخفر مقاطعا بصوت وديع متسائل :

« وانت في المقهى تسمع طبعا ما يقولون وتعرف أسمـــاء الذين يتكلمـون ؟ » .

هز محمد المحمودي راسه بالايجاب ، فابتسم رئيس المخفر وقال : « انت كما يبدو رجل طيب ومواطن صالح ، وانا ارغب فعلا في مساعدتك كي تنجو من التهمة الموجهـة اليك ، ولكن عليك ايضا أن تساعدني » .

قال محمد المحمودي بدهشة : « وكيف اساعدك وانـا ميت ؟ » .

فضحك رئيس المخفر ضحكة مرحـة ثم قال : « الامر بسيط جدا ومسل . اسمع ... » .

وانصت محمد المحمودي الى ما قاله رئيس المخفر ، ثم عاد بعد قليل الى حفرته في المقهى وهو شديد الابتهاج ، اذ بات لديه ما يفعله ، ولم يعد يشعر بالوحشـــة والضجر والخوف حين يقفل المقهى ابوابه في منتصف الليل ، اذ كان يسارع آنذاك الى كتابة ما سمعه من رواد المقهـى محاذرا النسيـان .

رندا

ـ ١ ـ

دخلت الريح مرتبكة الى مدرسة للبنـات الصغيرات ، وقالت لمديرتها : « يا آنسة ... أريد أن أصير تلميذة فـي مدرستك » .

قالت المديرة بوقار : « أنظمة المدرسة لا تسمح بالموافقة على قبولك تلميذة » .

حزنت الريح ، وهمت بمغادرة المدرسة ، فاستوقفتها بنت صغيرة اسمها رندا ، وقالت لهـا متسائلة : « لماذا تريدين الانتساب الى المدرسة ؟! » .

قالت الريح : « اريد أن أتعلم الكتابة » .

قالت رندا : « أنت ريح ، فما حـاجتك الى تعـلم الكتابـة ؟ » .

قالت الريح « أريد أن أكتب اسمي على وجه البحـار والانهار » .

فضحكت رندا وقالت مغتبطـــة : « اذن ستصبحين تلميذتي ، واكون أنا معلمتك » .

وتعلمت الريح كيف تكتب اسمها ، ولكنها نسيت فيما بعد معلمتها ، أما رندا فلم تنس تلميذتها الاولى .

ـ ٢ ـ

كانت رندا جالسة في غرفتها لحظة جاءها عصفـور صغير وقال لها وهو يبكي : « ماما .. ماما » .

فسألته بلهفة عن سبب بكائه ، فانباها بأن قطا حـاول أن يأكله .

ففضبت رندا ، واقسمت انها ستكره القطط ، ولكنها تجاهلت قسمها لما التقت بقط جائع .

ـ ٣ ـ

نظرت رندا الى الغيوم ، وقالت : « أنا لا احب الغيوم لانها تحجب الشمس » .

فقالت الغيوم لرندا : « أنت تنسين أصدقاءك بسرعة ، فمن بكى متعاطفا معك ليلة بكيت لان أباك سافر ؟! أنا التـي بكت ولم تترك نجمة دون أن تبللها » .

سمعت رندا ما قالته الغيوم ، فتذكرت أباها المسافر، وبكت ، وبكت الغيوم ، فابتلت الاعشاب والاشجار ، واجنحة العصافير والشوارع والمباني .

وعندئذ قالت رندا للمطر الغزير : « دموعي بللت وجهي، وها أنت ذا تبلل شعري. سأزعل منك اذا لم تختف فورا » .

فاضطرب الشتاء ، ووضع امطاره وغيومه ورياحـه وثلوجه في حقيبة ، ورحل تاركا رندا تنتظر الصيف كـي يمسح دموعها بشمسه الحارة .

ـ ٤ ـ

كانت رندا تحب القمر . وليلة يبزغ ، تأبى أن تنـام في الوقت المعتاد . وقد قالت لها أمها في احدى الليالـي مهددة : « اذا لم تنامي فورا ، فسأطلب من القمر أن يغيب »

فقال القمر لرندا : « يا بنت لا تصدقي كلام أمك فلـن أرحل وأغيب » .

ودهشت رندا لان أمها لم تسمع ما قاله القمر وتابعت تهديدهـا .

ـ ٥ ـ

عندما شاهدت رندا البحر لاول مرة ، صاحت بدهشة واعجاب : « ما اكبر هذا النهر ! »

فغضب البحر وقال لرندا بلهجة مؤنبة : « أنا نهـر ؟! أنا بحر . ومن المهانة أن أقارن بكل ما على سطح الارض من أنهـار » .

فسخرت رندا من كلامه ، واتهمته بالغرور ، ولكنهـا في السنوات التالية احبت البحر حبا لا يخلو مـن خوف ، وعرفت أن الانهار لا بد في ختام رحلتها من أن تأتي الـى البحر لتتلاشى في امواجه .

- ٦ -

افاقت رندا من نومها ، وقالت للشمس : « صبـــاح الخير » .

قالت الشمس : « انا جائعة . اريد حليبا ساخنا » .

قالت رندا : « اهلي فقـــراء ونحن لا نشرب الحليب صباحـــا » .

فشحب وجه الشمس اشفاقا وأسفا .

وفيما بعد كانت الشمس ما ان تتـــذكر رندا التـــي لا تشرب الحليب صباحا حتى يشحب وجههـــا ، فيقول الناس : « ها هي ذي الشمس موشكة على المغيب » .

فتبتسم رندا ساخرة ، فهي وحـــدها تعلم السر فـــي شحوب الشمس ، وتكتم ذلك السر :

- ٧ -

قالت رندا يوما لخروفها الصغير : « اكبر بسرعة » .

قال الخروف الصغير : « لو كنت تحبينني لمـــا طلبت مني هذا الطلب » .

فأكدت له انها تحبه ، ولكنها تتمنى أن يكبر كي تزهو به امام رفيقاتها .

وكبر الخروف ، واقتيد الى دكان الجزار ، فانتحبت رندا انتحابا مرا لم ينقذ خروفها من سكين الجزار .

- ٨ -

قالت رندا لاحد الجياد : « لماذا تصرخ ؟ » .

قال الجواد بنزق : « كلامك مضحك مخطىء ، انـــا لا اصرخ ، انا أصهل » .

قالت رندا : « لا داعي الى الزعل . لماذا تصهل ؟ » .

قال الجواد : « اني أصهل شوقا الى مدينة الجياد » .

قالت رندا باستغراب : « وهل للجياد مدينة ؟! هـــذا خبر جديد لم يرد في أي حكاية سمعتها » .

قال الجواد : « للجياد مدينة يعيشـــون فيها احرارا كالفيوم » .

فتذكرت رندا توا أوامر أمها ومعلمـــات مدرستها ، فقالت للجواد متوسلة : « خذني الى مدينة الجياد » .

فرفض الجواد قائلا ان مدينة الجياد يوم تطأها قدمـــا انسان ستتحول الى سجن .

قالت رندا متعجبة : « أنا مجرد بنت صغيرة » .

قال الجواد : « ولكنك ستكبرين في الاعوام القادمة » .

زعلت رندا من الجواد ، ولكنها لم تتخل عن حبهـــا للجياد ، وظلت تحلم بالسفر الى مدينتهم .

- ٩ -

حملقت رندا الى المرآة ، ثم قالت لامها متسائلة : « ماما! من اين اتيت ؟ » .

ففكرت الام هنيهات ثم قالت ضاحكة : « اشترينا يوما باقـــة ورد ، فوجدناك فيها ، وكنت وردة بيضاء صغيـــرة ، ولما ارتويت من حليب ثديي تحولـــت الـــى بنـــت صغيرة ماكرة » .

فضحكت رندا بمرح ، وصممت على ان تشتري باقة ورد .

— ١٠ —

سألت رندا البنفسج : « كيف صار لونك جميلا ازرق ؟ »

قال البنفسج : « في القديم كانت الارض مكتئبة ، فأمطرت السحب زهرا بلون السماء بدلا من المطر ، فكنت انا ذلك الزهر » .

فحدقت رندا الى السحب السوداء التي تزدحم بها السماء ، وانتظرت بلهفة ان تهطل وردا أسود . ولكن الورد الاسود ظل مختبئا في السحب .

— ١١ —

استلقت رندا على سريرها الصغير متعبة ، وحاولت ان تنام . فقال الليل لها : « احكي لي حكاية » .

قالت رندا : « لا أعرف أي حكاية » .

قال الليل : « ولكن امك روت لك حكايات كثيرة » .

قالت : « نسيتها » .

قال : « سأزعل » .

قالت : « ازعل » .

فزعل الليل ، وصار أسود .

— ١٢ —

رسمت رندا شمسا زرقاء وسماء صفراء وحقلا احمر .

فقالت الشمس : « يا لك من بنت بلهاء : لوني اصفر أصفر . من رأى شمسا زرقاء ؟ » .

وقالت السماء : « الم تنظري الي يوما ؟ فلوني ازرق، ازرق كالبحر » .

وقال الحقل : « بالتأكيد انت جاهلة ! الحقل لونه اخضر لا أحمر » .

استاءت رندا ، وغمست فرشاتها باللون الاسود ، وطمست به الشمس والسماء والحقل ، فاختفت الاصوات المحتجة الساخطة .

ثم رسمت رندا غرابا بألوان حمراء وخضراء وصفراء وزرقاء ، فقال لها الغراب مبتهجا : « اني مطالب بتقديم الشكر . لقد سئمت لوني الاسود الحزين ، وسأتركك الآن كي تراني الطيور وتحسدني » .

وطار الغراب تاركا رندا وحيدة .

— ١٣ —

وقفت رندا على رصيف شارع ، وضحكت وهي تحس بحب عارم لكل ما حولها ، وعندئذ حدث أمر غامض ، فالاشجار العارية الاغصان اكتست بالاوراق الخضراء .. ورحلت الغيوم التي كانت تأبى التحرك ، وغرد حسون متناسيا سجنه في القفص المعلق على شرفة أحد المنازل .

ولما عادت رندا الى البيت ، روت لامها ما جرى ، فقالت لها الام مقطبة الجبين : « كفي عن الكذب » .

فأكدت رندا لامها انها لا تكذب ، وضحكت ضحكة

مفعمة بالحب لكل ما حولها ، فصدقت الام آنذاك ما جرى لبنتها الصغيرة .

— ١٤ —

لرندا دميتان : قطة سوداء وارنب أبيض .

قال الارنب للقطة متسائلا بسخرية : « لماذا انت سوداء ؟! » .

قالت القطة بنزق وهزء : « ولماذا انت أبيض ؟ » .

قالت رندا لهما : « كفا عن التشاجر » .

قالت القطة : « لو يعلم الارنب من انا لما سخر مني » .

قالت رندا : « قولي له من انت » .

قالت القطة : « أنا بنت ملك » .

قالت رندا وهي تبتسم : « ولماذا صرت قطة ؟ » .

قالت القطة : « صرت قطة لاصبح صديقتك وانام معك في سرير واحد واسليك ساعة تحزنين » .

قال الارنب : « وانا ايضا لو علمت القطة من أكون لاحترمتني أعظم الاحترام ! » .

قالت رندا : « هيا تكلم وقل للقطة من تكون » .

قال الارنب : « انا ارنب كان فيما مضى من السنين يمتلك البراري الشاسعة » .

قالت رندا : « ولماذا تخليت عن براريك وجئت لتحيا في غرفتي الصغيرة » .

قال الارنب : « فعلت ما فعلت كي أقول لك حين تشرق الشمس : صباح الخير » .

فضمت رندا القطة والارنب الى صدرها تغمرها غبطة تشبه قطة صغيرة تلعب بمرح .

— ١٥ —

غادرت رندا مدرستها ، ومشت في الشوارع بخطى متباطئة ، وفجأة تنبهت الى ان أوراق الاشجار بدأت بالاصفرار والتساقط ، فقالت لاحدى الاشجار : « ما بك ؟ هل انت مريضة ؟ » .

قالت الشجرة : « لست مريضة ولكني متضايقة ومغتاظة » .

قالت رندا : « وما السبب ؟ » .

قالت الشجرة : « انظري الى ما حولك ، كل شيء يتحرك .. الغيوم والسيارات والطائرات والناس ، أما انا فمحكوم عليّ بألا أتحرك حتى أيبس وأتحول الى حطب » .

قالت رندا : « ومن يمنعك من التنقل من مكان الى مكان ؟ » .

قالت الشجرة : « جذوري متغلغلة في التراب ، ولا تسمح لي بأن أفعل ما أشاء » .

قالت رندا : « اذن لا داعي الى النرفزة » .

قالت الشجرة بحنق : « لا أريد سماع نصائح ، ولو كنت مكاني لصرت شجرة سوداء » .

وابتعدت رندا عن الشجرة ، وقصدت الى البيت ، ولما وصلت اليه ، قالت لشجرة الليمون المنتصبة في الباحة : « لماذا لا تصفر اوراقك وتتساقطين ؟ » .

قالت شجرة الليمون : « حين تكبرين ستعرفين السبب » .

فاشتد فضول رندا ، ووجهت الكثير من الاسئلة ، ولكن شجرة الليمون لاذت بالصمت ، فهرعت رندا الى أمها، وطلبت منها بصوت متوسل أن تشتري لها ثوبا أخضر .

ـ ١٦ ـ

قالت رندا لصديقاتها الثلاث : « سنلعب اليوم لعبة جديدة » .

فقالت الصديقات الثلاث متسائلات : « أي لعبة سنلعب ؟ » .

قالت رندا : « انا سأكون الملكة » .

قالت الصديقات الثلاث : « ونحن ؟.. » .

قالت رندا : « انتن شحاذات تجئن الى قصري وتطلبن مني مالا لتشترين خبزا » .

رفضت الصديقات الثلاث أن يلعبن ، وقلن انها لعبة مملة .

فخجلت رندا ، ولكنها بعد قليل اعترفت بأن لعبتها مملة .

ـ ١٧ ـ

قالت المعلمة لرندا : « هيا اقرئي الحروف المكتوبة على اللوح » .

اطاعت رندا ، وقرأت بصوت عال : « ألف » .

سألتها المعلمة : « حرف ألف .. ماذا يشبه ؟ » .

فكرت رندا قليلا ثم قالت : « حرف ألف يشبه السيف » .

قالت المعلمة : « كيف ؟! السيف في بلادنا مقوس النصل » .

قالت رندا : « انه فعلا سيف عجوز محني الظهر ، ولكنه دعي الى معركة فرجع شابا » .

ضحكت المعلمة بينما كانت رندا تبصر حرف ألف وقد تحول الى ولد مشعث الشعر يركض في الحقول هاربا من حروف اخرى كثيرة تطارده وتحاول امساكه .

ـ ١٨ ـ

همت رندا بقطف وردة حمراء جميلة من احدى شجيرات الورد ، فقالت الشجيرة لرندا بضراعة : « لا تقطفي هذه الوردة فأنا احبها أعظم الحب » .

قطبت رندا جبينها ، فقالت شجيرة الورد : « كان وردي قديما ذا لون أبيض ثم صار فيما بعد أحمر ، واذا وعدتني الا تقطفي من وردي حكيت لك عن السبب » .

قالت رندا بفضول : « هيا احكي كيف تحول لونك من أبيض الى أحمر » .

قالت شجيرة الورد : « كنت في قديم الزمان كما قلت لك شجيرة ورد أبيض ، وكان يقال عن وردي انه يشبه الثلج وغيوم الصيف . وفي يوم من الايام جاء رجل وقعد قريبا مني ، وبكى بحرارة ، فسألته عن السبب ، فقال لي ان ثلاثة ايام مرت عليه دون ان يأكل اي طعام ،

فآلمني كلامه ، وقررت مساعدته ، وقلت له : وردي أجمل من الخبز ، فاقطف وردة من وردي واجعلهـــا طعامك ، ولا بد من انها ستسكت جـــوعك بعض الوقت . فقال الرجل لي : أنت بالتأكيد شجيرة حمقـــاء ، فهل الوردة الجميلة تشبع معدة جائع ؟ وابتعد عني غاضبا ، فخجلت خجلا عظميا الى حد ان لوني الابيض اختفى ، وصرت منذ تلك اللحظة شجيرة تنبت وردا أحمر اللون » .

لم تقطف رندا الوردة ، ولكنها بعد أيام عندما سمعت في الشارع ولدا يقول لامه باكيا : « انا جائع » ، هرعت الى البيت ونظرت الى المرآة بخوف .

— ١٩ —

حملقت رندا الـى حائـط عتيـق مهترىء متشقق ، فشاهدت رجلا يسعل ويقول لها : « اعطيني ملعقة مـــن دواء السعال » .

وشاهدت زورقا يمخر بحرا متلاطم الامواج، وسمعت بحارته يطلقون صيحات الاستغاثة .

وشاهدت ولدا يتسلق شجرة ، فقالت له ناصحة : « ستقع يا ولد ويسيل الدم من رأسك » .

فلم يأبه الولد لنصيحتهـــا ، واستمر في تسلـــق الشجرة ، ولكنه سقط فجأة ارضا ، وشج رأسه ، فبكـى وصاح : « بدي ماما » .

وقال الرجل الذي يسعل :« أيـن دواء السعال ؟ » .

وصرخ البحارة بأصوات متوسلة : « نحن نغرق » .

فذعرت رندا ، وسدت اذنيها بسبابتيها ، وأغمضـت عينيها ، وعندئذ هدأ البحر وتصايـح البحارة فرحيـــن بالنجاة ، وجاءت سيارة بيضاء ، ونقلت الى المستشفـــى رجلا يسعل وولدا دامي الرأس .

— ٢٠ —

كانت رندا تملك كرة صفراء تحب اللعب ، وقد قذفت بها يوما الى أعلى ، فلم ترجع الكرة ، فآمنت منـــذ ذلك اليوم ان كرتها الصفراء قد صارت شمسا .

ولما تحدثت المعلمة في المدرسة عن الشمس ، قالت رندا لنفسها : « لا بد من أن أحدهم خدع معلمتي بمعلومات خاطئـــة » .

وأخبرت رندا معلمتها أن الشمس هي كرتها الصفراء. فضحكت المعلمة وقالت : ولكـــن الشمس .. الم تكـــن موجودة قبل أن تقذفي كرتك الي أعلى ؟ » .

فوجمت رندا ، واقتنعت ان الشمس ليست كرتهـا الصفراء ، ولكنها ظلت أمدا طويلا تتساءل بحيـرة : « اذن أين كرتي الصفراء ؟! » .

وفي احدى الليالي ، شاهـدت القمر أصفر اللون ، فابتسمت مسرورة ، وتلاشى تساؤلها .

— ٢١ —

وقفت رندا في باحة البيت يغمرهـــا ضياء شمس حارة ، وتخيلت الصيف طيرا ضخمـا يحترق ويطير مـن

مكـان الى مكـان باحثا عن نهـر ، ولكـن الانهار تطـرده قائلـة : « مائي للبساتين خادمك » .

ونظرت رندا الى الشمس متضايقة ، فقالت الشمس لهـا : « ما اسمك يا بنت ؟ » .

فقالت رندا بصوت هازيء : « ولماذا تسألين ؟ انت شمس ام انك شرطي ؟! » .

قالت الشمس بدهش : « اتسخرين مني ؟ » .

قالت رندا : « انا اسخر منك لانك تتكلمين معي وكأني خادمـك » .

قالت الشمس بحنق : « ستندمين يا بنت اشد النـدم ففي المساء سأغيب ولكنني لن اعود في الصباح فيبقـى الظلام ولا يرحل » .

ضحكت رندا ، وقالت للشمس : « لو كنت تذهبين مثلي الى المدرسة لما تكلمت كلامـا خاطئا كما تكلمت الآن . صحيح انك تختفين في اخـر النهار ولكنك لا بـد عائـدة في صباح اليـوم التالي ولن تستطيعي تنفيذ تهديدك » .

تلاشى غيظ الشمس وحل محله فرح خفـي ، فحتى البنات الصغيرات صرن لا يمكن خداعهن .

— ٢٢ —

شحب وجه رندا عندمـا قالت امها لها : « سأذهب لزيارة جارتنـا المريضـة » .

ولكنها تظاهرت باللامبالاة ، وقالت لامهـا بلهجـة متوسلة : « خذيني معك » .

قالت الام متسائلة : « هل تخافين من البقاء وحـدك في البيـت ؟ لا تقولي انك تخافين فقد صرت صبية » .

قالت رندا : « لست خائفة ، وما الذي سأخاف منه؟» .

فابتسمت الام ، وقالت : « لن اغيب طويلا .. مجرد دقائق » .

وغادرت الام البيت ، فأمسكت رندا مجلة ، وراحـت تتفرج على صورهـا الملونة .

وبغتة سمعها صوت يقول : « رندا .. رندا » .

فتطلعت فيما حولها مرعوبة ، فلـم تبصر احدا ، فازداد رعبها ، ولكن الصوت تعالى ثانية قائـلا بتأنيب : « لماذا لا تجاوبين ؟ الا تريدين التكلم معي ؟ » .

قالت رندا : « من الذي يتكلم ؟ » .

وسمعت الصوت يقول : « انا الذي يكلمك » .

فتلفتت رندا مستطلعة ، فألفت الفرفة خاويـة . قال الصـوت :

« انا هنا .. انظري الى النافذة » .

ونظرت رندا الى النافذة ، فابصرت غرابا على حافتها، فشهقت متعجبة ، وقالت : « انت الذي يتكلم » .

قال الغراب بنزق : « لماذا الاستغراب ؟ نعم .. انا الذي يتكلـم » .

قالت رندا : « ولكـن الغربان كمـا اعلم لا تقول سوى: قـاق قاق » .

قال الغراب « نحـن الغربان تقول للكبـار الذيـن يحاولون صيدنا دائما : قاق قاق ، ساخرين منهم ، ولكن الصغار الذين لا يؤذوننـا نحب التحدث معهم » .

وفي تلك اللحظة رجعت الام من بيت الجارةالمريضة ، وما ان دخلت الغرفة وابصرهـا الغراب حتى نعب قائلا : « قاق .. قاق » .

وطار بعيدا ، فضحكت رندا طويلا ، ولاذتبالسكوت عندمـا سألتهـا امها عن سبب ضحكها .

— ٢٣ —

سمت رندا جرس الباب يرن بالحاح ، فصاحت امها التي كانت تكنس احدى الغرف : « يا رندا اذهبي بسرعـة وافتحـي الباب » .

فاطاعت رندا ، وفتحت الباب ، فابصرت شحـاذا عجوزا يرتدي ثيابا بالية ، ومـا رآها حتى مد كفه نحوهـا قائلا بصوت مرتعش : « اعطوني مما اعطاكم الله » .

وجاء صوتالام من داخل البيت : « من جاء يارندا ؟» .

قالت رندا بصوت رفيع حاد عال : « شحاذ » .

قالت الام :« ماذا يريد ؟ »

قالت رندا للشحاذ : « امي تقول ماذا تريد » .

قال الشحاذ : « اريد رغيف خبز . انا جائع » .

صاحت رندا : « ماما .. الشحاذ يقول انـه جـائـع ويريد رغيف خبز » .

وظلت رندا متجمدة تحدقالى الشحاذ مرتجفةمذعورة حتى جاءت امها وهي تحمل رغيف خبز ، وقدمته للشحاذ الذي تناوله باحترام ، ورفعه بحركة خاشعة الـى فمه ، وقبله ، ثم تمتم بكلمـات مبهمـة شاكرا ، وابتعد عن بـاب البيت وهو يمشي بخطى متثاقلة .

واغلقت الام الباب ، فقالت رندا لها : « ماما .. لمـاذا باس الشحاذ الرغيف ؟ » .

قالت الام : « باسه لانه يحبه كثيرا » .

قالت رندا : « ولمـاذا يحبه الى هذا الحد ؟ » .

اجابت قائلة وهـي تبتسم :« لـولا الخبـز لمـات النـاس جوعـا » .

ولما عادت الام الى الغرفة التي كانت تكنسها ، قصدت رندا المطبخ ، وهناك امسكت رغيف خبز ، وقبلته ، وعندئذ ارتجفت وكأن قلبها جناحا عصفور سجين في غرفـة صغيرة مـن اسمنت لا باب لها ولا نوافذ .

— ٢٤ —

كانت رندا تقرأ دروسهـا بصوت مرتفع رتيب بينمـا امهـا منهمكـة في رفو ثوب .

وتنبهت رندا فجأة الى فراشة بيضاء تحوم في سماء الغرفة ، فتوقفت عن القراءة ، وقالت لامها بفرح : « ماما .. انظري الى الفراشة البيضاء . ما اجملها ! »

قالت الام دون ان ترفع رأسها : « انها تبشر بمجيء الربيـع » .

فعاودت رندا قراءة دروسها بصوت مرتفع رتيب ، ولكنهـا لم تفهم ما كانت تقراه ، انمـا كانت تعدو في حقول مكتظـة بالاشجار والازهار ، تحوم في سمائها الزرقـاء فراشات حمراء وبيضاء وصفراء وخضراء .

وتقبل عربة بيضاء تجرها جياد بيض ، وتقف بالقرب من رندا ، ويترجل منها رجل ، ويقول لرندا :« انا الربيع » .

فتقول رندا له :« انت الذي تتحدث عنك كتبي المدرسية ؟» .

فيقول الرجل : « نعم .. انا الربيع » .

فترجوه رندا ان يوقع باسمه على دفترها ، فيلبي طلبها ، غير انه لم يكن يعرف ان يكتب اسمه ، فيكتفي بأن يرسم على دفترها ازهارا واشجارا وعصافير وشموسا مشرقة .

— ٢٥ —

قالت رندا لاحدى صديقاتها :« حينما اكبر سأصير غيمة فارحل من مكان الى مكان » .

قالت الصديقة : « اما انا فسأصير ريحا وارغمك على السير وفق مشيئتي » .

قالت رندا : « لن اصير غيمة ، سأصير نجمة » .

قالت الصديقة : « ولكن النجمة تختفي حين يأتي النهار » .

قالت رندا : « سأصبح وردة » .

قالت الصديقة : « ستقطعك الايدي لتضعك في آنية » .

قالت رندا : « سأصير بلبلا » .

قالت الصديقة : « سيصيدك الصياد ويبيعك لتسجني في قفص » .

فكرت رندا حائرة ثم قالت بثقة : « حين اكبر سأظل بنتا صغيرة اسمها رندا » .

— ٢٦ —

كانت رندا موشكة على النوم عندما سمعت دماها

تحكي عن كنوز تعرف مخابئها ، فارادت ان ترجوها ارشادها الى مخابيء تلك الكنوز ولكن النوم كان اقوى منها فحملها بعيدا عن الدمى .

ولما افاقت من نومها صباحا تذكرت حديث دماها عن الكنوز ، فسارعت تسألها عنها ، فظلت الدمى ساكتة ، فاغتاظت رندا ، وانبأت امها بما جرى ، فقالت الام لها : « انها تكذب ، ولو كانت تعرف مخابيء الكنوز لاشترت ثيابا جديدة وسيارات ، ولما قبلت العيش معنا » .

ولما جاء الليل واغمضت رندا عينيها محاولة النوم ، سمعت دماها تتكلم عن كنوز ، فابتسمت بهزء ،واستسلمت لنوم عميق ذي احلام بعيدة عن الكنوز .

— ٢٧ —

حدقت رندا باعجاب الى طائرة فضية اللون كانت تعبر الفضاء الازرق ، وتابعتها بنظراتها حتى اختفت ، ثم اسندت ظهرها الى الحائط ، واغمضت عينيها ، فجاء ملك يمتطي صهوة جواد اسود ، وقال لرندا : « انا عطشان » .

فقدمت رندا له ماء باردا ، فشرب الملك حتى ارتوى، ثم قال لرندا : «انت انقذت حياتي من الهلاك فاطلبي ما تشائين » .

قالت رندا دون تردد :« اريد ان اطير » .

فأصدر الملك اوامره ، فبادر علماء مملكته الى تنفيذ اوامره ، وصنعوا جناحين جميلين قدمهما الملك لرندا وهو يقول :

« طيري كما ترغبين » .

وطارت رندا كما يطير السنونو وعصفور الدوري والطائرة ، ولكن صوت امها بلغ سمعها مناديا بالحاح ، ففتحت عينيها فوجدت نفسها ملتصقة بحائط ، منتظرة بلهفة مقدم ملك عطشان ..

— ٢٨ —

كانت رندا تمشي في سوق مزدحمة ، فشاهدت حمارا يقف بالقرب من الرصيف ، تثقل ظهره اكياس مليئة بالحطب ، فتوقفت ، وسألته قائلة : « اانت الحمار ؟! » .

قال الحمار بصوت ساخط :« نعم .. انا الحمار ، فمن خدعك وقال لك اني غزال او شحرور ؟! » .

قالت رندا : «ماذا تأكل ؟ » .

قال الحمار : « افطاري حلوى وغدائي لحم مشوي اما في المساء فلا اكل شيئا تنفيذا لتعليمات طبيبي الخاص » .

قالت رندا : « واين تنام ؟ » .

قال الحمار : « انام في افخم فندق » .

قالت رندا بلهجة موبخة : « انت حمار سيء الاخلاق . اسالك بتهذيب فتجاوب هازئا بي ؟! » .

قال الحمار بنزق : « ضعي على ظهرك هذه الاكياس الثقيلة ثم جاوبي افضل من اجوبتي » .

فسكتت رندا ، وفيما بعد عندما شتمها احدالاولاد وسخر منها واتهمها بانها تشبه الحمار ، لم تغضب وضحكت ضحكا ارغم خصمها على الدهشة .

— ٢٩ —

عندما كانت رندا نائمة ، ركضت في بستان مكتظ بالاشجار وتنبهت بغتةالى ان طيرا ابيض ضخما يطاردها ، فذعرت ، وارادت ان تستغيث ولكنها اخفقت ، وانقض الطير عليها وحملها وطار بها ، فقالت بصوت مبتل بالدموع : «ماما .. بابا » .

فقال الطير الابيض لها : « لا تخافي » .

واستمر الطير الابيض في طيرانه حتى بلغ مدينة بيوتها بيض وتسكنها طيور بلون الثلج ، ولم تبصر رندا اي انسان .

حط الطير الابيض على الارض ، وقال لرندا : « ستعيشين الان سعيدة ، فهنا لا مدرسة ولا معلماتولا دروس ولا امهات يأمرن » .

فرحت رندا،ولكنها ما ان تذكرت امها وبيتها وحارتها ورفيقاتها ومدرستها حتى وجدت نفسها تبكي بكاء مرا ، وبدت لعينيها البيوت البيض وطيورها قبورا مخيفة ، وبذلت جهدا حتى تمكنت من ان تستيقظ من نومها ،وكان الليل لا يزال مهيمنا ، فمسحت دموعها ، وتمنت ان يأتي الصباح سريعا لتركض في حارتها وتقرع ابواب بيوتها متلهفة الى سماع الاصوات الغاضبة المؤنبة .

— ٣٠ —

تعرف رندا الكثير من الكلمات غير انها كانت تحب كلمة « نهر » حبا غامضا .

اغمضت رندا عينيها ، فحل ليل اسود ، ثم فتحت عينيها ، فسطع نهار ذو شمس مضيئة .

ضحكت رندا مبتهجة ، فها هي ذي قد باتت قوية ، يطيع الليل والنهار اوامرها دون تمهل .

فرحت رندا عندما اشترت لها امُها تمثالا خشبيا لغزال صغير .

ولما رجعت الى البيت ، سارعت الى غرفتها ،ووضعت الغزال الخشبي على سطح طاولة .

وفي يوم من الايام ، رددت بصوت خفيض مفعم بالنشوة : « نون .. هاء .. راء » .

وتلاقت الاحرف الثلاثة معا ، لتصبح نهرا من نجوم، ونهرا من اشجار ، ونهرا من بنات صغيرات يركضن تحت المطر ، ونهرا من تفاح احمر ، ونهراً من قطط وعصافير، ونهرا من ذهب .

وها هم الناس يتراكضون نحو نهر الذهب، ويتشاجرون ،وكل منهم يبغي الحصول على اكبر كمية من الذهب ، فتغضب رندا ، وتسارع الى تخيل نهر من خبز، فيهرع اليه اطفال صفر الوجوه ، هزيلو الاجسام، فيضمحل غضب رندا ، وتزداد حبا لكلمة « نهر » .

قال الغزال الخشبي : « ازيحي الستارة عن النافذة فانا لا استطيع العيش دون شمس وهواء » .

صاحت رندا بدهشة : « ما هذا ؟! غزال من خشب ويتكلم ؟! »

قال الغزال الخشبي : « اضطررت الى ان اصبح غزالا من خشب حتى لا يقتلني الصيادون ويأكلوا لحمي فلا احد يأكل غزالا من خشب » .

اعجبت رندا بذكاء غزالها ، وصارت منذ تلك اللحظة تنظر الى كل ما هو من خشب على انه هارب ، استخدم ذكاءه للنجاة من الموت .

يموء القط،ويقول لرندا :« جعت وحان وقتغدائي » .

فتسأله رندا : وماذا تريد ان تأكل ؟» .

يقول القط : « اي شيء يؤكل . ارحببقطعة خبز » .

تقول رندا : « سأحضر لك قطعة خبز » .

فيقول القط : « لا لا ... تمهلي ..لا اريد قطعةخبز. سأجد صعوبة في مضغها وابتلاعها. اريد قليلا من الحليب » .

تقول رندا : « سأجلب لك صحنا مليئا بالحليب » .

يقول القط : « الحليب لذيذ الطعم ولكن الجبن افضل كما اعتقد » .

تقول رندا : « ستنال قطعة كبيرة من الجبن » .

يقول القط : « لا . لا .. من المؤكد ان اللحم نافع للجسم اكثر من الجبن » .

تقول رندا : « ساتعرض لتوبيخ امي من اجلك واسرق لك قطعة من اللحم النيء » .

يقول القط : « ما دمت مستعدة للتضحية من اجلي فأريد عصفورا حيا او فأرا فأكل واتسلى في وقت واحد» .

فتصيح رندا نافدة الصبر : « ابتعد عني والا ضربتك فانا لست امك ، ولن اقدم لك اي طعام مهما توسلت او بكيت » .

فيسكت القط قليلا ثم يقول بصوت خافت ذليل : « تكفيني قطعة صغيرة من الخبز ، ولن اتذمر اذا كانت يابسة » .

فتحضر رندا قطعة خبز ، وترميها للقط ، فيتلقفها بلهفة وغبطة ، ويشرع توا في اكلها بشراهة بينما رندا تراقبه مدهوشة ودون ان تعرف السبب الذي جعلها تشعر في تلك اللحظة انها في مدرستها تصت لدرس مهم من معلمتها .

— ٣٤ —

قالت رندا لامها المنهمكة في طهو الطعام : « سأقف قليلا عند باب البيت » .

قالت الام : « اذهبي ولكن اياك والابتعاد عن البيت» .

وقفت رندا عند باب البيت ، تتفرج على المارة : فدنا منها ولد صغير ، اسمر الوجه ، وديع ، وقال لها : « تعالي العبي معي » .

فتأملته رندا ، قبدت قامته قصيرة بطول قلمها

الرصاصي ، فقالت له بجفاء : « انا لا اعرفك فلماذا تتكلم معي ؟ » .

فاكتأب الولد ، واحمر وجهه ، وهمّ بالمسير ، فقالت رندا له : « ما اسمك ؟» .

قال الولد وقد ابتهج وجهه : « احمد » .

قالت رندا : « اسمي رندا » .

قال الولد : « اختي الكبيرة اسمها سلمى » .

قالت رندا : « انا لا اخوة لي » .

قال الولد بتأفف : « اخوتي كثيرون الى حد اني لا احفظ اسماءهم » .

فشعرت رندا بحزن مباغت غريب دفعها لان تترك الولد وترجع الى داخل البيت ، وهناك لم يفارقها حزنها الغريب .

قالت شجرة الليمون : « انا سأصبح اختك » .

وقال عصفور : « وانا سأصبح اخا لك » .

وقال الشتاء والخريف والربيع والصيف : « نحن اخوتك » . ولكن رندا ظلت خاضعة للحزن الغريب القاسي الذي لم تعرفه من قبل .

— ٣٥ —

امسكت رندا قلمها الرصاصي ، واوشكت ان تكتب ما تعرف من حروف على ورقة بيضاء ، فقالت الورقة البيضاء لها :

« اتركيني بيضاء » .

قالت رندا متسائلة بتعجب : «ما هذا الطلب الغريب؟!» .

قال القلم الرصاصي : «لا داعي الـــى سؤالهـــا ، وسأكتب ما اشاء ولن تستطيع ان ترفض » .

قالت الورقة البيضاء : « انا لا اتحدث مـــع قلـــم مجنـــون مثلـــك » .

قال القلم الرصاصي : « جاء حتما آخر الزمان وعشت حتى سمعت ورقة تافهـــة تسخر مني وتتهمني بالجنون » .

قالت الورقة البيضاء : « انا تافهة ؟! أتسبني ايها القلم المصنوع من خشب عتيق ؟» .

قال القلم الرصاصي : « وانت ؟! هل انت مصنوعة من ذهب وفضـــة ؟ » .

قالت رندا بصوت مفعم بالتســـأم :« يا لكمـــا مـــن ثرثاريـــن ! » .

ورمت القلم الرصاصي فوق الورقة البيضاء التـــي صاحت محتجة : « اتجرؤ على ضربي ؟! سأشكوك الى مـــن يعرف كيف يؤدبك » .

قال القلم الرصاصي : « ومن يكون ذلك القادر علـــى تأديبـــي ؟ » .

قالت الورقة البيضاء :« انسيت صديقتي المبراة ؟ سأجعلهـــا تاكلك دون رحمة » .

قال القلم الرصاصي بذعر وعتاب : « نحـــن نتناقش نقاشا وديـــا فلمـــاذا الغضب والتهديد ؟ اهكذا تعاملـــين اصدقاءك وتتناسين الاشهر الجميلة التي عشناهـــا معا ؟ ».

قالت الورقة البيضاء : « اذا اردت الا تثير غضبـــي فـــلا تتدخل في شؤوني الخاصة » .

فصمت القلم الرصاصي ، فعاودت رنـــدا امساكه ، وقالت للورقة البيضاء بفضول : « لماذا لا تريدين ان اكتـــب عليـــك » .

قالت الورقة البيضاء : « كانت امنيتي طول حياتي ان اصبح سائحة تتجول في انحاء العالم » .

قالت رندا : « وكيف استطيع تحقيق امنيتك؟انها امنية مستحيلـــة » .

قالت الورقة البيضاء : « لا لا . . انها امنية تستطيعين تنفيذهـــا بسهولة . انا اذا صرت رسالة ذاهبة الى بلد بعيد فسيتاح لي الطواف في بلدان كثيرة وركـــوب السيـــارات والطائـــرات » .

قالت رندا : « تفكيرك سليم ، ولكنك نسيت اني لـــم اتعلم بعـــد كتابة كلمات تكفي لرسالة » .

قالت الورقة البيضاء : « انتظرت كثيرا وباستطاعتي تحمل المزيد من الانتظار اذا وعدتني بأن تحاولي تعلم كلمات جديدة بسرعـــة » .

فوعدتها رندا ان تبذل جهدها كي تحفظ بسرعة المزيد من الكلمات ، ولكنهـــا بعد ايـــام عندمـــا عادت الى غرفتها لـــم تجـــد الورقة البيضاء على سطح الطاولـــة ، والفت النافذة مفتوحـــة يدخل منهـــا هواء قوي، فاحست بالاسف لان الورقـــة البيضاء لم تصبر ، ورحلت وحدها ، ودون ان تودعهـــا .

- ٣٦ -

تسير رندا ليلا وهي تمسك يد امها ، وكانت بيـــن

الفينة والفينة تنظر الى اعلى ، فتجد القمر فوقها حتى اقتنعت ان القمر يتبعها .

ولما اخبرت امها بما يفعله القمر ، قالت الام : « لاتكوني مغرورة ، وانت مخطئة اذا ظننت ان القمر يتبعك » .

فرمقت رندا امها بزهو ، وهي واثقة بان القمر لا بد من انه يحب امها اعظم الحب ولا يستطيع الابتعاد عنها في الليالي التي يبزغ فيها .

— ٣٧ —

قالت رندا لامها بلهجة متذمرة : « سئمت القعود في البيت » .

قالت الام : « سنزور جدك . ما رايك ؟ » .

وما ان تخيلت رندا الباحة الفسيحة للبيت الذي يسكنه جدها ، حتى سارعت الى الترحيب باقتراح امها ، ولكن الام قالت لرندا : « يجب ان تعاهديني اولا على ان تقبلي يد جدك حين ترينه » .

فتمتمت رندا بكلمات غير مفهومة ، فقالت امها : « لن آخذك معي اذا ظللت عنيدة كعادتك تأبين تقبيل يده » .

فكرت رندا قليلا ثم قالت منكسة الراس :« سأقبل يده » .

وذهبت رندا مع امها الى بيت جدها ، وما ان شاهدت جدها حتى خفق قلبها حبا له ، ولكنها ظلت متجمدة ، فقالت لها امها هامسة بلهجة معاتبة : « اذن كذبت عليّ ؟! الا تحبين جدك ؟» .

قالت رندا : « انا احبه ولكني لن اقبل يده » .

فابتسمت الام ابتسامة مرة ، وتذكرت ايام كانت طفلة تتكلم كما تتكلم ابنتها ثم صارت الطفلة امراة تحني راسها وتقبل الايدي ، ورغبت في ان تعانق رندا ،وتقول لها : « ايـاك وان تقبلي يد احد » .

ولكن الام لم تتحرك وظلت واقفة تحدق بحنق الى رندا التي كانت تركض في باحة البيت مقلدة اصوات قطار سريع لا يقف في اي محطة .

— ٣٨ —

كانت رندا لحظة تلصق اذنها بالارض ، تسمع اصواتا عذبة تنشد اغنيات جميلة بلغة مجهولة غامضة .

وفي احد الايام كانت رندا ملتصقة بالارض ، فشاهدتها امها ، وقالت لها متسائلة بفضول : « ماذا تفعلين ؟ » .

قالت رندا : « اني اسمع » .

قالت الام : « ماذا تسمعين ؟ » .

قالت رندا : « اسمع غناء جميلا » .

قالت الام مدهوشة :« ما هذا الحكي الابله؟ هل تريدين ان يقول الناس ان رندا مجنونة ؟! الارض مجرد تراب وحجارة » .

وفي الايام التالية لم تعد رندا تسمع اصواتا عذبة تغني منبثقة من جوف الارض ، وصارت الارض ترابا وحجارة فقط .

لم تستطع رندا الواقفة في شارع اغماض عينهـا او الصراخ او الانتحاب ، انما اكتفت بان ترتجف كورقـة صفراء تواجـه بعناد ريحـا شديدة تحاول اجبارها على التخلي عن شجرتهـا . واستمرت تحدق الى الرجل الذي انقض على امرأة جميلة تولول ، ورماهـا ارضا ، وشهر سكينا ، واهوى بهـا على عنق المرأة وهـو يطلق صرخـة مديـدة خشنة كأن السكين تطعـن قلبه . ثم نهض واقفا ملطخ اليديـن والثياب بالدم ، وقذف بالسكين بعيدا بحركمـة ازدراء ، واشار بيده الى المرأة القتيل ، وقال للناس بفخر : « هذه اختي ، وانا الذي ذبحها وغسل عاره » .

عندئذ اختفت رندا .

الاغتيال

- ١ -

ولجت حديقة الاشجار العارية الاغصان ، وهناك رأيت حبيبتي نائمة ، فقلت لها : « استيقظي ، فقد آن لنا الرجوع الى بيتنا ، واذا وجدناه مهدما فسأبني بدلا منه بيتـا مـن حجر ابيض وازرع حوله الورد الاحمر والاصفر » .

وقلت لها : « سأطرق ابواب مملكة النوم بقبضة شحاذ » .

وقلت لها : « لن ارحل وحدي وسأنتظرك » .

فقيل لي ان حبيبتي ميتة وليست نائمة ، فسألـت مرعوبا : « وكيف ماتت ؟ »

فقيل لي انها قد قتلت ، فسألت وقد تزايـد رعبـي : « ومـن قتلهـا ؟ » .

فقيل لي : « أنت قاتلهـا » .

فاختبأت في جسد حبيبتـي ، واغمضت عيني ، واستسلمت للنوم تغمرني الطمأنينة ، واستمر نومي يومـا او

سنـة او مئة سنة ثم استيقظت على أصوات خشنة تقول لي : « ابتعـد فقد تمّ حفر قبرها وآن دفنها » .

فصرخت مستغيثا مناديا حبيبتي ولكنها ظلت دونمـا حراك ، فتذكرت وانا متشبث بلحمها البارد عصفورا صغيرا ابيض رايته يومـا ينطنط من غصن الى غصن فرحا بضيـاء الشمس ، ولكن العصفور مات ، وماتـت الاغصان ، وماتت الشمس .

— ٢ —

يطاردني رجال لا اعرفهم ، فاختبيء في جسد حبيبتي، ولكن الرجال يجيئون سريعا قساة غاضبين ، ويقتحمون غرفة حبيبتي ، ويبحثون عني ، فـلا يستطيعون العثور علـيّ ، فتتجهم وجوههم ، ويهمون بالذهاب ، غير ان احدهم يقول فجأة لحبيبتي :« اخلعي ثيابك » .

فتقول له بدهشة واستنكار : « استح » .

فيقول لها هادئا صارما : « نريد التفتيش بدقة » .

فتخلع حبيبتي ثيابها بنزق ، وتقف جسـدا عاريا متحديا ، فيتحسس الرجل لحمها ، ثم يرميها ارضا بحركة مباغتة شرسة . واسمعها تشهق مرتعدة ، وتقول بصـوت خفيض : « انت تؤلمني » .

فيزداد الرجل توغلا في جسدها ، ويصطدم بي ، فـلا يدهش ، انما يقول لي بصوت فظ متهدج :« اخرج والا اطلقنا النار عليك » .

فأخضع لامره ، ولكنه يظل متابعا بحثه عني ، ثم يتلوه

بقية الرجال ، فأصرخ محتجا ، فيطلب منـي السكـوت ، فأطيع ، وأراقب ما يجري بعيني ميت .

— ٣ —

حبيبتي المستلقية على سريري وردة بيضاء ، وصوتها الماء يركض مرحا في الحقول الخضراء .

قالت : « انا الآن سمكة » .

قالت : « ارغب في قراءة قصة حب » .

قالت : « اكره امي وابي » .

قالت : « احب امي وابي » .

قالت : « لن احب احدا » .

ولما جاء الليل ، عانقتني بحنان اخت وقبلت خـدي ، وعادت الى بيت اهلها ، فخوى السرير ، وشعرت بالخوف ، فاختبأت تحت اللحاف محاولا النوم ، ولكن سكينا مرهفـة النصل اقبلت ، وبترت اصابع يدي ، فبكيت ، وقلت : « لن استطيع لمس قطة » .

وراقبت بعينين مفتوحتين مفعمتين بالكراهية والشفقة دمي الذي كان ينزف رويدا رويدا ليتركنـي باردا فـارغ الشرايين .

الفريسة

احترقت الفمامة والموسيقى والورد ودمى الاطفال ، فلم أجد مكانا اختبىء فيه سوى نهر كثير المياه ، وهناك عشت طوال سنوات وحيدا مستسلما لطمأنينة غامضة ، حتى جاء في احد الايام صياد هرم ، فانتشلني بسنارته من قاع النهر ، وحدق الي باستغراب واسف ، وقال : « ظننت انك سمكة » .

فقلت له متصنعا المرح : « لا تخطىء فالانسان افضل واروع من السمكة » .

فنظر الى الشمس الآفلة بعينين مجهدتين ، وقال : « مساكين اولادي ، سينامون الليلة دون أن يأكلوا » .

فأحنيت راسي بخجل ، ثم قلت له : « كيف صدقت ما قلته لك ؟ كنت أمزح فأنا سمكة » .

قال الصياد : « ولكن الاسماك لا تتكلم » .

قلت بصوت متهدج : « انسيت ان البحر غني واسماكه متنوعة ؟ انا سمكة من نوع غريب ، تتكلم وتشبه الانسان » .

قال الصياد متسائلا بفرح : « أتقول الصدق أم ما زلت تمزح ؟! » .

فأجبت دون تردد : « سؤالك ساذج ، فما الذي يرغمني على الكذب ؟! » .

فلم يفه الصياد بكلمة ، وحملني الى بيته وهو يلهث متعبا ، وهناك تولت زوجه تقطيعي بالسكين الى قطع مختلفة الحجوم ، ووضعتها في مقلاة ملأى بزيت يغلي ، فلم أصرخ متوجعا أو مستغيثا ، وبقيت في المقلاة حتى نضجت ،عندئذ ابتدأ أولاد الصياد يأكلونني بنهم ، فغمرتني البهجة ، ولكني حزنت بعد قليل لان الاولاد قالوا بتذمر وسخط ان لحمي سيىء الطعم على الرغم من انهم استمروا في أكلي .

وازداد حزني عندما تنبهت الى اني في يوم تال لا بد عائد الى جوف الارض ، وسأضطر آنذاك الى العيش في الاماكن المظلمة القذرة حتى يتاح لي يوما رؤية الشمس في جذور شجرة أو وردة .

الملك

الخطر

حدق مولانا الملك الى الرجل العجوز النحيف المتقوس الظهر ، وقال له : « قيل انك عالم تطمح الى ان تعرض على انظارنا ما اخترعت ، فهات ما عندك » .

قال الرجل العجوز بصوت هادىء لا يخلو من فرح خفي : « سأعرض على مولاي أفضل ما اخترعت » .

واخرج من جيبه كرة زرقاء اللون ، وقال فخورا : « هذا هو اختراعي » .

قال الملك بفضول : « ما هذا ؟ » .

قال العجوز : « كرة من المطاط مجوفة وقد أطلقت عليها اسم الطابة » .

قال الملك متسائلا : « وما الفائدة منها ؟ » .

قال العجوز : « انا اخترعتها كي يلعب بها الاطفال » .

فقطب الملك جبينه ، وقال : « وكيف سيلعب بها الاطفال ؟ » .

فابتسم العجوز ابتسامة مزهوة ماكرة ، ورمى الطابة بقوة على الارض ، فتواثبت وحدها مرات عديدة ، وبدت كعصفور طائش ينطنط مرحا .

نهض رجل ذو لحية بيضاء طويلة ، وصاح بصوت متهدج غاضب : « الدين يا مولاي في خطر » .

وأشار بسبابته الى الطابة صارخا : « ابليس مختبىء في جوفها وهو الذي يحركها » .

فتعالت توا أصوات الوزراء والاعوان مؤيدة ، لاعنة ابليس ، وحملقت الاعين الى الطابة التي استقرت على الارض دون حركة .

الشتاء

اعلن صناع السرر الاضراب عن العمل مطالبين بزيادة أجورهم .

وحين نمي النبأ الى الملك ، لم يغضب انما ابتسم بحنو ، وقال متسائلا : « من اي شيء تصنع السرر ؟ » .

فقيل له بأنها تصنع من خشب الاشجار ، فابتسم الملك ثانية ، وأمر الاشجار بأن تنبت سررا ، غير انها لم تطع الامر الملكي ، فاستاء الملك ، وحكم على الاشجار بالموت عطشا .

وفرح الملك اشد الفرح اذ ألفى الاشجار موشكة على الهلاك اثر منع الماء عنها ، ولكن فرحه ما لبث ان توارى يوم اقبل الشتاء .

السجـون الخاويـة

حظي المدير العام للسجون الملكية بلقاء مولانا الملك ، وانبأه بصوت خاشع ان السجون امتلأت بالسجناء ولم تعـد تتسع لمزيد ، ورجا بنـاء سجون جديدة .

غضب الملك ، وصاح : « ماذا تقول ؟ ألا تعـلم ان بناء سجون جديدة يحتاج الى أموال طائلة ؟ وهل نسيت ان ما بحوزتي من أموال لا يجوز انفاقها الا في سبيـــل صالح الرعية ؟ » .

فتمتم المدير العام بصوت ضارع : « مولاي ... » .

فقاطعه الملك صارخا بنزق : « اسكت » .

سكت المدير العام للسجون الملكية ، وسكت اهـل المملكة ، وانتظروا ما سيحدث مرتعشين لهفة وذعرا .

قال الملك : « الملك الصـالح لا يحق له تبديد مـال الرعيـة » .

واضاف موجها السؤال الى المدير العام : « هل يأكل السجناء كل يوم ؟ » .

ـ « مرة واحدة فقط » .

ـ « ومن يدفع ثمن طعامهم ؟ الرعية طبعا . هذا تبذير لمال الرعية وخطأ ينبغي اصلاحه فورا » .

ونفذ في الحال الامر الملكي ، فأعدم السجناء كافة ، واصبحت بعدئذ السجون الملكية خاوية تتسع لسجناء جدد.

حين يسكر الفقراء

استولى الضجر على الملك ، فتنكر في ثياب الفقراء ، وانطلق يجوب في طرقات المدينة ، حتى بلغ الازقة التـي

يحيا فيها الفقراء ، وهناك استرعى انتباهـه ناس يتحلقون حول رجل سكير يرتدي ملابس عتيقة مهـترئة ، ويترنـح يمنة ويسرة وهو يصيح : « انا الملك ، فمن له مطلب يرجـو الفوز به فليتقدم ويتكلم » .

فدنا من السكير كهل وضع يديه على بطنه ، وقـال بلهجة متباكية : « سأموت جـوعا ولا املك ما اشتـري به رغيف خبز » .

فخلع السكير فردة حذائه ، وقدمها للكهل وهـو يقول : « خذ .. ها انذا امنحك نصف مملكتي » .

فضجّ الناس بالضحك . ورجع الملك الى القصر وقد فارقه ضجره ، واصدر امرا يحظر على الفقراء شرب الخمرة.

الانتصار

تنبه الملك يوما الى ان ما في خزائنه من ذهب وفضة قد تناقص ، فاغتم ، وطلب من وزيره النصح ، فقال الوزير دون تفكير : « سنفرض ضريبة جديدة » .

فهز الملك رأسه موافقا ، وكلف وزيره بتنفيذ ما اقترح.

وابتدأ الجباة يطوفون في المدن والقـرى وبرفقتهم رجال الشرطة ، يرغمون الناس على دفـع الضريبة الجديدة ، ومن لا يدفع ، يهان ويضرب ويسجن .

وأتى يوم نفد فيه صبر الناس ، وانفجر غضبهم ، فساروا في حشد ضخم قاصدين القصر الملكـي واصواتهم تصعد قوية ساخطة على الظلم .

ولما علم الملك بما حدث ، سمح لوفـد يمثل المتظاهرين بمقابلته ، وانصت باهتمام لما قاله اعضاء الوفد من كلام كئيب

مؤثر عن الجوع والسجـــــون والضريبة والوزير الظالم ، وأعرب عن دهشته واستنكاره لما سمع ، وقال بصوت متهدج خجل : « كيف سألقى ربي يوم القيامة ؟ اتظلم رعيتي دون أن اعلم .. انا الذي كرس حياته لخدمة المعوزين والمساكين واليتامى والارامل ؟! » .

ونهض واقفا ، وأعلن بصوت صارم طرد الوزير مـن منصبه ومصادرة ما يملك من قصور وأموال عقابا له عـلى جوره واحتراما لارادة الرعية .

غادر الوفد القصر الملكي ، وابلغ الناس الناقمين بمـا جرى ، فتصايحوا فرحين شاكرين للملك مؤازرتـــه للعدل والحق ، غير ان الجباة في اليوم التالي تابعوا طوافهم عـلى البيوت والدكاكين .

مغامرتي الاخيرة

مشيت كثيرا . وعنـدما تعبت ، دخلت مطعمـــا ، وتصنعت البحث عن صديق ، وكانت المناضد مثقلة بصحون الطعام ، ومحاطة بأفواه دائبة الحركة .

سألت الجرسون بصـــوت متعجـرف : « ألم يأت الاستاذ أمجد ؟ » .

قال الجرسون : « أمجد ؟!.. » .

قلت : « أمجد العباس . لا بد انك تعرفه . هو مدير بنك . يتغدى لديكم كل يوم » .

تردد الجرسون ، ولكن تردده لم يستمر سوى لحظـة خاطفة ثم تحول الى فخر واعتداد بالمطعم الذي يعمل فيـه ويؤمه مدراء بنوك للغداء ، فقال : « لم يأت بعد . لا بد انه سيأتي بعد قليل » .

نظرت الى ساعة معصمي ، وقلت : « لا لا . ما دام لم يأت حتى الآن فلا بد انـــه اضطر لحضـــور اجتماع طارىء » .

وغادرت المطعم بخطى متمهلة وأنا أقول لمعدتي بقسوة : « اياك والتفوه بكلمة تذمر واحدة ، فأنا لم أرغمك على أن تكوني معدتي » .

قالت معدتي : « ارحم من في الارض يرحمك من في السمـــاء » .

تذكرت في تلك اللحظة السماء التي نسيتها منذ أيام، فنظرت اليها ، وكانت زرقاء صافية ، فتخيلت توا امرأة شعرها أزرق وعيناها خضراوان ولحمهـــا أسود ووردة حمراء تزين شعرها .

صاحت معدتي : « ما ألذ اللحم المشوي ! » .

فبادرت الى تأنيبها ، وحضضتها عـــلى التقشف ، واتجهت نحو بقالية صغيرة ، وكان صاحبها رجل عجوز ، فطلبت منه بيعي بيضتين ، ورجوتـــه أن يختارهما كبيرتي الحجم ، فقال لي وهو يتسلم ثمنهما من يدي : « ستأخـذ بيضتين لا مثيل لهما » .

ثم اضاف متسائلا بلهجة لم أعرف ما اذا كانت جادة أم ساخرة : « هل أضعهما في كيس ؟! » .

قلت : « لا .. لا .. » .

وتناولت البيضتين ، ووضعت واحـــدة في جيبي اليمين ، والثانية في جيبي اليسار ، وسرت نحو البيت فرحا بهما ، ولم تكف أصابعي عن لمسهما بحنو .

وما أن دخلت البيت حتى هرعت الى المطبخ ، واحضرت صحنا ، وأمسكت بكل يد بيضة ثم ضربت الواحدة بالاخرى، فكسرت واحدة منهما ، وخرج من جوفها ما يشبه صوصـا

أبيض اللون ، فقلت بنزق : « غشني البائع . سألعن اجداده جدا جدا » .

وتجمدت مذهولا اذ ابتدأ ما خيل الي انه صوص يكبر حتى صار رجلا أبيض الثياب ، ذا جناحين ، فطغى عـلي الرعب ، وأفلتت يدي البيضة الثانية ، وسقطت أرضـا ، وتحطمت ، فرمقتها آسفا متحسرا ، فاذا هي ايضـا يخرج منها صوص أبيض ، وكبر بسرعة وصار كرفيقـــه رجلا ذا جناحين ، فتصنعت الشجاعة ، وقلت : « ما هذا المزاح ؟! من أنتما ؟! » .

قال أحد الرجلين : « أنا منكر .. » .

وأشار الى زميله ، وقال : « وهذا نكير » .

ثم أردف قائلا بثقة وزهو : « لا بد انك سمعت عنـا الكثير . نحن الملاكان اللذان نزور الميت في أول ليلة يقضيها في القبر ونحاسبه على ما فعل عندما كان حيا » .

قلت : « لماذا جئتما الي ؟ أنا لست ميتا ، وهذا البيت ليس قبرا ، وفي مطلع كل شهر ادفع لصاحبه أجرا يستنفد معظم دخلي » .

فتبادل منكر ونكير النظرات الحائرة ، فازداد استيائي، وصحت بهما : « ألا تصدقان انـي لست بميت ؟! اذا كنتما لا تصدقان فسأستخدم يدي للاقناع » .

قال منكر بصوت مضطرب : « لا تزعل . ما جرى مجرد خطأ غير مقصود . ونحن نعتذر .. » .

قال نكير : « ونعتذر بحرارة » .

واتجه الاثنان نحو باب المطبخ ، فاعترضت طريقهمـــا متسائلا بغيظ : « الى أين ؟ » .

قال منكر : « هناك عمل كثير بانتظارنا » .

قلت : « وثمن البيضتين التالفتين من سيدفعه ؟! » .

قال منكر : « نحن نرغب في اصلاح الخطأ ولكن ... »

فقلت مقاطعا : « المسألـــة بسيطة . ادفعا لي ثمـن البيضتين » .

قال منكر رافعا ذراعيه آلى أعلى : « فتشنا . جيوبنا فارغة تماما » .

قلت : « اذن لن ادعكما تخرجان . هل سأظـــل دون طعام بسبب خطأ لست مسؤولا عنه ولا علاقة لي به ؟! » .

قال نكير : « كن عاقلا . لا مال معنا » .

قال منكر : « ولكننا حين نحاسبك يوم تموت سنتغاضى عن عدد لا بأس به من سيئاتك » .

ففكرت قليلا ، ثم قلت لهما : « وعد رجال ؟! » .

فاصطفقت أجنحتهما وكأنها تحتج ، فسارعت الـــى القول : « أقصد وعد ملائكة » .

فهزا رأسيهما بالايجاب وهما يبتسمـــان ، فابتعدت آنئذ عن الباب ، وسمحت لهما بالخروج .

وما أن اصبحت وحيـــدا حتى عـــاودني الغضب والاحساس بأني قد خدعت ، فقلت بصـــوت مرتفع مهدد : « سألعن أبا ذلك البقال الغشاش المحتال ! سأذهب اليـــه وأهدم دكانه فوق رأسه » .

وغادرت البيت راكضا نحو دكان البقال العجوز ، ولما بلغتها وجدت ناسا كثيرين متجمعين عند بابها ، يحدقون الى البقال الذي كان مستلقيا على الارض مغمض العينين دونمـا حـراك ..

فسألت واحدا من المتفرجين : « ما به ؟ » .

فقال : « كان المسكين واقفـا يضحك . وفجـأة وقع على الارض ومات » .

فاضطربت واحترت ولم أعلم ماذا أفعل . وبعد لحظات جاءت سيارة اسعاف بيضاء اللون ، ووقفت بالقرب مـــن دكان البقال ، ونزل منها سائقها وبصحبته ممرض بثيـــاب بيض ، وفتحا الباب الخلفي للسيارة ، وأخرجا منها نقالة ، وصرخا مطالبين الناس بالابتعاد ، فتفرق النـــاس قليلا . عندئذ وضع السائق والممرض النقالة على الارض ، وحمـلا البقال وهما يتحادثان بمرح ، والقيا به عـــلى النقالة ، ثم انحنيا وحملا النقالة وسارا نحو السيارة ، فاندفعت اليهما صارخا وقد تذكرت ما حلّ بي : « لن اسمح لكما بأخذه » .

فقال لي الممرض : « هس . لا داعي الى الولولة . اذا كنت قريبه فرافقه » .

ودفعا النقالة بحركة سريعة الـى جوف السيـارة ، وصعدا الى مكانيهما في مقدمة السيارة ، فلم أجد مفرا من أن اقفز الى داخل السيارة .

وسارت السيارة بسرعة ، وبوقها يطلق صوتا يشق لها طريقا سهلا وسط الشوارع المزدحمة بالناس والسيارات .

لكزت البقال العجـــوز ، وقلت له : « يا محتال .. يا نصاب ! اتبيعني بيضا مغشوشا ؟ الا تخجل ؟ » .

لم يجاوب البقال ، فقلت له : « أنا أعرف انك تصنعت الموت لتهرب مني ولكنك جهلت في يد مـــن وقعت . انت مسكين . اسمع . لن اتركك حتى ولو اضطررت الى النزول

معك الى القبر . ادفع لي ثمن البيضتين دون لف ودوران والا نتفت شعر لحيتك شعرة شعرة » .

عندئذ فتح البقال عينيه ، وقال لي بغيظ : « أنت فعلا ولد محروم من التربية العائلية المحترمة . أهكذا تكلم الموتى ؟ للموت حرمة ويجب ان تراعى » .

قلت له : « تابع وعظك تابع . انا لا أستجدي ولا أطلب صدقة . انا أطالب بحقي » .

قال البقال : « طالب بما تشاء . أصرح ومزق ثيابك . أنا ميت . واذا تنبه السائق والممرض الـــى انك تحدثني أخذاك فورا الى مستشفى المجانين » .

قلت : « أريد حقي ولن أتنازل عنه ولو حدث زلزال » .

فأغمض البقال عينيه ، وقال : « تكـــلم كما تشاء . أنا ميت والموتى لا يتكلمون » .

فشتمته فترة طويلة ، ولكنه لم يأبه لي ، وظل صامتا أصفر اللحم ، فاضطررت الى السكوت حين بحّ صوتي .

وتنبهت الى اني موشك عـــلى الاختناق ، فالسيارة ضيقة وسقفها منخفض ، وكنت أتنفس بصعوبة ، ودهشت لان السيارة لم تبلغ المستشفى عـلى الرغم من انها سارت مسافة طويلة جدا .

صرخت بالسائق والممرض طالبا منهما ايقاف السيارة، ولكنهما لم يلتفتا اليّ ، وظلت السيارة تجتاز الشارع تـلو الشارع وهي تسير بأقصى سرعة ، ففتحت بابها مزمعا أن اقذف بجسدي منها ، ولكني جبنت ، ووجدت نفسي بعـد قليل أسحب البقال عن النقالة ، فلا يقاوم ، وأطوح به الـى خارج السيارة ، ثم أستلقي على النقالة وأنا أتنهد بارتياح ،

واحسست بالغضب والاعياء يزولان عني رويدا رويدا ، ولم البث ان استسلمت للنوم بينما السيارة لا تزال منطلقة في الشوارع مطلقة من بوقها ولولة مستمرة .

ولما افقت من نومي بعد زمن ما ، فوجئت بأني في مكان مظلم ، فحاولت النهوض ، فأخفقت محاولتي .

وفجأة سطع نور قوي منبعث من مصبـــاح كهربائي مسدد نحوي . وسمعت صوتا هازئا يقول لي : « ها نحـن ذا قد تلاقينا بسرعة » .

وخيل اليّ اني قد سمعت ذلك الصـــوت من قبل . وسمعت صوتا ثانيا يقول : « انها فرصة جميلة تتاح لنـا لنرحب به ترحيبا ينسيه أمه » .

فاشتد تعجبي لان الصوت الثاني سبق لي ايضـا ان سمعتـــه .

قال صاحب الصوت الاول : « يبـــدو انـه ضعيف الذاكرة ونسينا ! » .

وسمعت وقع أقدام ، واقترب مني صاحبا الصوتين ، فاذا هما منكر ونكير ، وكانا يحملان سياطا وثيابهما سود ، وأعينهما صارمة قاسية .

أردت الكلام ، فأخفقت . قـــال منكر : « أتعرفُ ماذا سنفعل بك ؟! سنظل نضربك حتى نمزق لحمك قطعا صغيرة تحيا فيها الديدان وتأكلك على مهل وما يتبقى منك ستأتي الجرذان وتلتهمه » .

حاولت التكلم وتذكيرهما بوعدهما ، فـلم أستطع ، وقد لاحظ محاولتي ، فضحكا ببهجة ، وأدنى منكر يـــده المطبقة الاصابع من نور المصباح ، وفتحها ، فتدلت منهـــا

قطعة لحم تقطر دما ، وقال لي : « عرفت ما هذه ؟! انهـــا لسانك وقد قطعناه كي لا تثرثر ويصاب راسانا بالصداع » .

فأغمضت عيني ، وغرزت أظـــافري فـي التراب ، وتعالى صراخي متحشرجا مستغيثا ، فلم يأبه لي منكر ونكير، وقدما الي اوراقا كثيرة قائلين : « هذه الاوراق مكتوبـــة بخطك وتتضمن اقرارك بكل ما فعلته من سيئات ، فهيـــا وقعها والا ... » .

فبادرت الى توقيعها دونما تردد ، وانتظرت السياط برعب ، ولكن ضوء المصباح انطفأ فجـأة ، وساد الصمت ، ولما تعودت عيناي الظلمة اكتشفت ان منكرا ونكيرا قد اختفيا فابتهجت ، ولكني بعد حين شعرت بالوحشة اتى حد انـــي اجهشت بالبكاء بصوت عال ، ثم اضطررت الى السكـــوت خجلا لما تناهت الى سمعي أصوات متذمرة تطالب بحقهـــا في الراحة بعد الموت .

وبعد أيام زارني جرذ جائع ، واتفقنا معا على أن يأكل ساقي اليمنى لقاء أن يحضر لي راديو ترانزستور .

ولقد نفذ الجرذ الاتفاق ، واتيح لي أن أستمع الـــى الاغاني ونشرات الاخبار بينما كان الجرذ يأكل ساقي متمهلا ويتلمظ بتلذذ قائلا لي بين الفينة والفينة انه لم يخدع .

وبعد أيام أخرى ، ابتدأت أفكر في صفقة ثانية أتخلى فيها عن ساقي اليسرى لقاء الحصول على تلفزيون صغير .

فهرست

	ص
الاعداء	٥
يوسف .. يوسف الصغير الجميل الهالك	٢٠
الزهرة	٢٩
في ليلة من الليالي	٣٢
الفندق	٤٧
النمور في اليوم العاشر	٥٤
ما حدث في المدينة التي كانت نائمة	٥٩
السهرة	٦٧
لا غيمة للاشجار ولا أجنحة فوق الجبل	٧٨
الابتسامة	٨١
ملخص ما جرى لمحمد المحمودي	٨٣
رندا	٨٧
الاغتيال	١١٧
الفريسة	٧٢٠
الملك	١٢٢
مغامرتي الاخيرة	١٢٧